القسم الثاني

حضارات الانسان في الشرق الأدنى

obeikandl.com

obeikandl.com

الكتاب الأول

المقدمات

بالرغم من اللقاءات التي لا يخطر ببالنا قط اسدال الستار عليها – ومن الجلي ان كل تصنيف يخطىء ، حين يبسّط ، ويضحي بالكثير من التفاصيل – فان هنالك ، في العهود نفسها ، ابتداء من الالف الثالث قبل المسيح ، حضارات تتميز عن الحضارات الامبراطورية التي جرى استعراضها في الفصول السابقة .

ارتبطت الحضارات الامبراطورية كلها بدول اتسعت رقعتها وارتفع عدد سكانها وفرض وجودها ، واجبات نافذة في كل من التنظيم الاداري والتنظيم السياسي ، وتوجب عليها تأمين سبل العيش لجماهير غفيرة وتوجيه وتنسيق نشاط اعضائها الاقتصادي سعياً وراء هذا الهدف ، كما حدث في مصر مثلاً . ومهما يكن من الامر ، فان هذه الدول ، العظيمة بمساحاتها الشاسعة وبارتفاع عدد سكانها ، والمعرضة ، من حيث هي دول برية ، لاطماع وتهديدات جيرانها الذين تقلقهم تارة ويقلقونها اخرى ، والمجرورة جراً الى حروب لا تستطيع ان تحجم عن خوضها ان هي لم ترض بالزوال ، قد واجهت مشاغل عسكرية خطيرة لم تنج من كابوسها الا مصر وحدها لمدّة طويلة . وهكذا تضافرت فيها اسباب مختلفة ادت الى اعلاء شأن وسلطة ملك يسمو فوق المستوى البشري قد يؤله احياناً ، والى انصهار الفرد في جمهور الرعايا . ان هذه الحضارات لم تستهدف الانسان بل الدولة المتمثلة بشخص الملك .

اذا ما اخذنا بعين الاعتبار القوة التي بلغتها هذه الامبراطوريات والنفوذ الذي تمتعت به بفضل هذه القوة ، يصبح من الطبيعي الا نرى حضارات معاصرة تعتمد مثلاً اعلى آخر ، او تفكر به مجرد تفكير فقط . وبالحقيقة ، ان « النزعة الانسانية » التي حررت الفرد فاناطت بالدولة مهمة مساعدته في تفتح كيانه المادي والروحي ، لم تبرز ، بشيء من اللاوعي ، الا بعد زمن ، ولم تحظ بالفوز الا بعد زمن اطول ، عاجزة في التاريخ القديم عن ارساء فوزها على اساس وطيد ودائم . ولكن المهم في ذلك ليس عدم الاكتمال وعدم الاستقرار ، بل تلمس جرثومة على الاقل ، هنا وهنالك ، مصيرها الاجهاض حيناً والنمو حيناً ، وسماع صدى آخر مختلف ، حتى ولو تضخم في غير مكان ، او انطفأ ببعض السرعة . ولكن استجلاء هذه المقدمة ليس بالامر اليسير . فقد تختلف

جوهراً وتكون سياسية او اقتصادية هنا ، او اخلاقية او عقلية او فنية هنـــاك . وقد يحدث احياناً كثيرة الا يكون هنالك شيء ملموس ، فنجد انفسنا امام دلائل لا امام حقـــائق ، او امام وريث بعيد يشوّه الارث الذي انتقل اليه . ولكن لا نهتمن للامر ، بل فلنمسك بالفـارق الذي تضفي عليه دقته قيمة كبرى .

وبودنا ان نجد خطوطاً اخرى مشتركة بين هذه الحضارات التي صنفناها على حدة، ولكننا لا نكتشف الا خطاً واحداً ، جديراً بالتالي ببعض الاعتبار ، وهو ان جميع هذه الحضـارات قد نمت في كنف شعوب تؤلف جماعات اقل عدداً من تلك التي الفتها الشعوب الامبراطورية ، وتقيم في رقعة اصغر مساحة ، ويعيش بعضها في مناطق مختلفة لا تخضع لوحدة سياسيـــة . وهي لم تواجه ، بصورة عامة ، معاضل تنظيم ملحة ، وقد عالجت ما واجهته منها بحلول غير عسيرة . وقد اضطرت الدولة بحكم الضرورة، في غالب الاحيان، الى التراجع عن المطامع الكبيرة ، فوقفت من هذه المعاضل موقفاً حكيماً ، حاصرة مطالبها ومطلقة للانسان حريته في العمل . اجـل ، قد فرض عليها التهديد الخارجي ، احياناً ، تعبئة جميع قواهـا الشعبية ، متجـــاوزة في ذلك محاولات اعظم الملكيات شأناً ، ولكنها سلكت حينذاك اوفق السبل امامهـا ، اعني التوجه المباشر الى الفرد وارتقاب الحصول ، ولو جزئياً ، من قبوله الاختياري ، على ما يعجز اي قسر عن تحصيله . وهكذا تخرج الدولة والانسان، من هذه الازمات نفسها ، اوثق ارتباطاً وتضامناً.

يصح تطبيق هذه المحاولة التحليلية على اليونان بنوع خاص. ولا يزال من المستهجن تطبيقها، كما وردت ، على حضارات الدول الصغيرة التي سنستعرضها استعراضاً سريعاً في الصفحات التالية، لان الغموض ما برح يكتنفها بظلمته . ويجوز لنا الاعتقاد بان الصـلة التي تقوم بين واقـع الدولة الصغيرة وبين بعض الفوارق الحضارية المعينة ، قد تقابل حقيقة ثابتة ، اذ اننا رأينا ، في حـالة خاصة نعرفها تماماً ، ما يبرر منطقياً قيام هذه الصلة . او ليس من الممكن ايضاً ، والحالة هذه ، ان تكون هذه الصلة قد قامت في غير مكان ، بكثير او قليل من الاسترخاء ؟

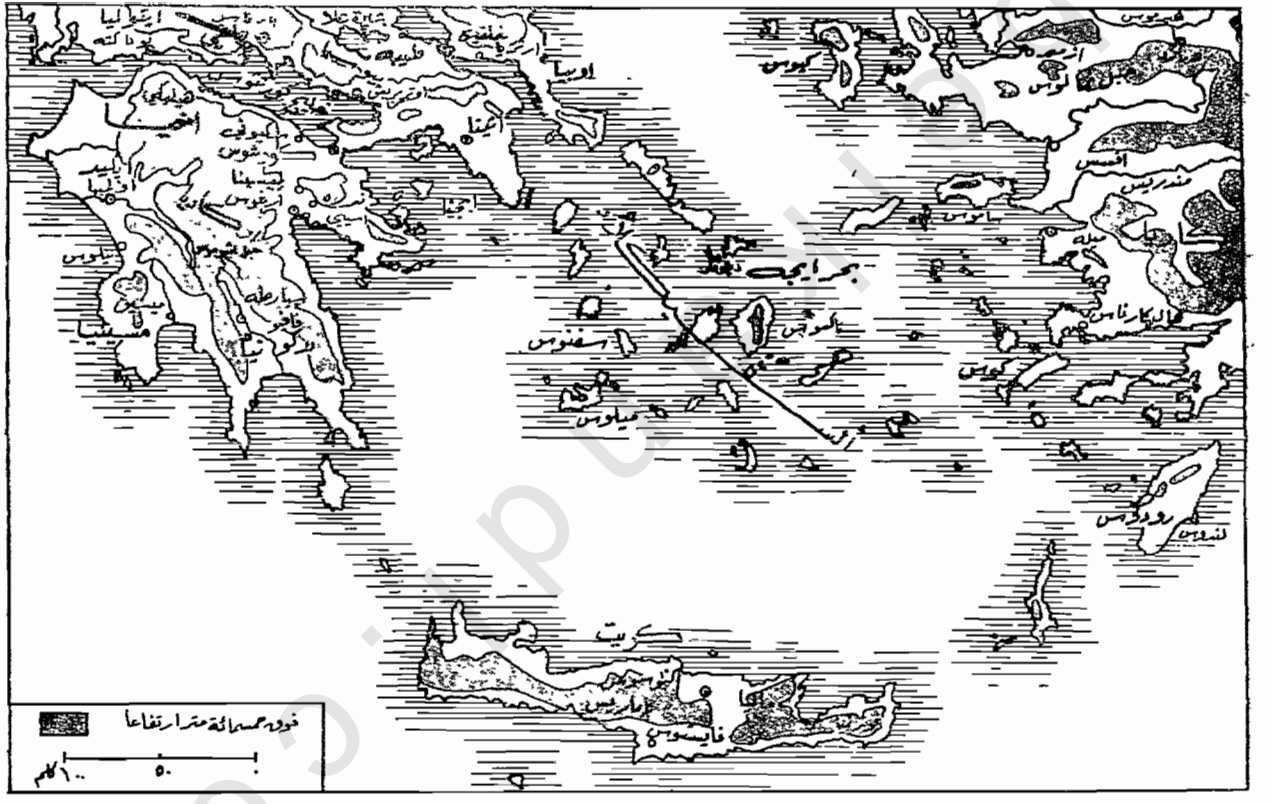

الشكل ١٨ ـ العـــالم الإيجي

الفصل الأول

الحضارة الأيجية

قد يبدو غريباً ان نفرز للحضارة الايجية فصلاً خاصاً في سلسلة الفصول التي سنسندها الى هذه المحاولة . ولكننا نعتقد مع ذلك بان لهذا التصنيف ما يبرره . فبالرغم من ان الكلام عن «الامبراطوريات» عند الايجيين تقليد موروث وامر مشروع ، فليس المقصود بها سوى دول صغيرة يكاد مجموع مساحة اراضيها لا يذكر اذا ما قورن بالامبراطوريات البرية الكبيرة ، ولا تعوض السيطرة التي بسطتها هذه الدويلات على البحر عما تتصف به من تواضع نسبي . والمقصود ايضاً هو حضارة يرتبط نشاطها الاقتصادي الرئيسي ارتباطاً متيناً بالتجارة، وخصوصاً بالتجارة البحرية التي تترك للانسان ، او لفرق صغيرة من الناس ، استقلالاً اوسع من ذلك الذي تتركه الزراعة ، لا سيما في المناطق التي تقتضي رياً منظماً . وقد عبّر عن هذه الحضارة ، من جهة ثانية ، فن اكثر انفلاتاً وعفوية من فنون الشرق القديم جميعها ، حتى عندما اوجبت على الفنانين معالجة بعض المواضيع الملكية او الدينية . وهي قد تركت اخيراً للحضارة اليونانية ، التي كرس ازدهارها اللاحق انتصار الفردية ، تراثاً اهم من تراث الشرق او اسرع نضجاً على الاقل، بفضل المجاورة الجغرافية والتنضيد الجغرافي احياناً .

١ — وحدة الحضارة الايجية وازدواجيتها

العهد الكريتي

الحضارة الايجية واحدة ومزدوجة معاً .

ولدت في كريت، اكبر جزر البحر المتوسط الشرقي، وهي الجزيرة الوحيدة التي تتخللها بعض السهول وتنشط فيها بالتالي الاعمال الزراعية . وعلى الرغم من جودة مناخها ، فان الانسان لم يظهر فيها الا بعد ظهوره في مناطق الشرق الادنى الاخرى برمن طويل ؛ ولم يترك في الواقع اي اثر قبل عهد الحجر المصقول ، في حال ان آثار عهد الحجر المشطوب وافرة جداً في مصر وفلسطين وبلاد ما بين النهرين . وهي لم تسجل ، طوال قرون عديدة ، اي تقدم على ارخبيل السيكلاد . اهلت ، وهذا الارخبيل ، بالعنصر البشري نفسه الذي يغلب ان سواحل

آسيا الصغرى اهلت به ايضاً ، وهو عنصر لا يمت بصلة الى العناصر المعروفة الكبرى واطلق عليه لذلك لقب «المتوسطي» . فالاحرى بنا ، كي نفسر هذه المقابلة ، ان نفكر بسهولة الملاحة بين جميع اجزاء هذا العالم الايجي الذي تنتثر جزره هنا وهناك وتكثر فيه الاجوان والخلجان وتهب عليه ارياح منتظمة في فصل الصيف. بيد ان جزيرة ميلوس وحدها، في مجموعة السيكلاد، حوت طبقات وافرة من حجر بركاني اسود اشبه بالزجاج (الاوبسيدين) توفر بيعه وتصريفه صفائح رقيقة دقيقة الزوايا ، ولذلك ربما كانت في البدء اكثر ازدهاراً من جزيرة كريت . ويصح القول نفسه عن جزيرة قبرص الغنية بالنحاس الذي عرف باسمها والقريبة من آسيا التي كانت حضاراتها بمثابة المرشد لها .

اما كريت فلم تأخذ في البروز الا في النصف الاول من الالف الثالث ، اي قروناً طويلة بعد مصر وبلاد ما بين النهرين اللتين اغدقت الطبيعة عليها نعمها . فها هي تنطلق فجأة في السنة الالفين تقريباً فتشيد القصور في كنوسوس وفايستوس وماليا بنوع خاص . ولكن هذه القصور تهدمت حوالي السنة ١٧٠٠ ، بفعل كارثة شاملة قد تكون زلزالاً ارضياً او غارة صاعقة قام بها الاعداء . ثم اعيد تشييدها وابتدأ حينذاك عهد ازدهار كريت عامة وكنوسوس بنوع خاص التي كتب البقاء لقصرها وحده في الجزيرة منذ السنة ١٥٠٠ تقريباً .

ذاعت حينذاك في كافة انحاء المتوسط الشرقي شهرة كريت ، ولا سيما شهرة مينوس ، الملك الاسطوري الذي تكلم عنه الاغريق والذي يغلب انه اسم لاحدى السلالات لانه لا يعقل ان يكون من اكتشافات مخيلتهم فقط . وقد بدا اثر هذه الشهرة في جنوبي اليونان وفي البلوبونيز بنوع خاص .

لم تعرف مناطق شبه الجزيرة اليونانية حتى ذاك التاريخ سوى حضارة فقيرة ومتدنية . وقد تعرضت منذ اوائل الالف الثاني تقريباً ، بفضل اتصالها بالمناطق البلقانية الاخرى ، لغزوات دورية متكررة قام بها الهنود الاوروبيون الذين كثيراً ما نجحوا في الاقامة في البلاد . ومنذ القرن السادس عشر توصل المستوطنون الجدد الى تسلّم السلطة، على الاقل في منطقة ارغوس ، في الشمال الشرقي من البلوبونيز ، وهؤلاء هم الاخيون الاغريق ، او بالاحرى احدى العنصريات التي ستكون الشعب الاغريقي فيما بعد . وقد تأثروا بنفوذ الكريتيين واخذوا ينقلون الكثير عن حضارتهم ، محتفظين في الوقت نفسه باكثر من ميزة من ميزاتهم الخاصة . بيد انه قد مر عهد حققت فيه كريت سيطرة نافذة عليهم تكاد لا تختلف عن السيطرة السياسية ، لا سيما وان كريت وكنوسوس كانتا حينذاك في اوج ازدهارهما .

العهد الميسيني

غير ان الأخيين بفضل صفاتهم الحربية واستخدامهم العربات التي تجرها الخيول والقوى النضيرة التي تجيش فيهم ، وبفعل سحر الثروة التي ينعم بها مربوهم ، قد انتهوا الى مهاجمة هؤلاء المربين. فدك قصر كنوسوس دكاً حوالي السنة ١٤٠٠ ، ولم

يكتب له ان ينهض بعد ذلك . ويمكننا ان نحدد بهذا العهد اقامة شعب جديد ، كريتي حسب رواية الكتاب المقدس ، في الشاطىء الجنوبي من بلاد كنعان ؛ ويرجح ان هولاء الفلسطيين الذين حملت فلسطين اسمهم من بعدهم ، مهاجرون هاربون من بلاد عمها الدمار . اما الارغوليد، على نقيض ذلك ، فقد اخذت في الوقت نفسه تتقدم وتزدهر. فكيف لا نجمع بين هذين الواقعين، الهبوط في الجزيرة والتقدم في شبه الجزيرة ، بافتراض حصول حملة منصورة واستلاب منظم ؟

ويدعم هذا الاعتقاد ان في الحضارة التي نمت حينذاك ، لا سيا في ميسين — التي اعطتها اسمها التقليدي — وفي تيرنثوس ، اثراً كبيراً للحضارة الكريتية . وليس من ريب في ان الأخيين ، في غزوهم الجزيرة والقضاء على الحياة الناشطة فيها ، نقلوا منها الكنوز والفنانين والعمال بغية تحسين حياتهم المادية الخاصة ؛ ولكن وجود هذه الأشياء وهؤلاء الاشخاص عندهم ما كان ليبقى دون نتيجة في الحقل الأدبي ، لا سيا على الصعيد الديني .

وقد استثمروا ما ورثوه من كريت على الصعيد الاقتصادي ايضاً . فسيطروا على البحر ومارسوا التجارة مندفعين فيها شطر مناطق جديدة كاليونان وغربي المتوسط مثلاً . وكانوا اكثر خشونة من الكريتيين فحاربوا ونظموا جماعات من المستعمرين ووجهوها هنا وهناك، الى قبرص وربما الى شواطىء آسيا الصغرى الجنوبية حيث اسست دولاً جديدة . وقد نهض الأخيون جميعهم بعمل مشترك ضد مدينة طروادة عند مدخل المضايق ، وهو ذاك الحصار الطويل الذي خلدت ذكره الملاحم الهوميروسية. أما تاريخ هذا الحدث فلا يزال موضوع خلاف وجدل ؛ فهل هو وقع في أوائل القرن الرابع عشر ، أم في أواسط القرن الثالث عشر ، أم في أواخره ؟ ولا اتفاق كذلك حول الاسباب التي أوجبت النهوض بهذه الحملة . ولكن ليس من شك في قيام الحملة وانتصار الأخيين .

غير ان هذا الانتصار لم يحل دون تسرب الوهن الى الحضارة الميسينية منذ السنة ١٢٠٠ . لم تصب هذه الحضارة بانهيار مفاجىء سريع ، بل اعتراها هبوط تدريجي سببته موجات يونانية جديدة آتية من الشمال هي موجات الدوريين . وقد توفر لهؤلاء الحديد الكافي لان يصنعوا منه جميع أسلحتهم فتغلبوا على أسلافهم المتسلحين بالبرونز الذين بسطوا سيطرتهم على العالم الايجي طيلة قرنين كاملين .

وحدة وازدواجية

وهكذا نرانا امام حضارتين متميزتين بالرغم من صلة القربى بينهما . أجل انهما تجاورتا في المكان مع ان المسافة الفاصلة بين مركزيهما تتجاوز ثلاثمائة كيلومتر . وتجاورتا في الزمان ، الى حد ما ، ايضاً،لا بل ان تحديد تاريخ زمنهما التقريبي يلخص علائقهما الواحدة بالاخرى. فقد دامت الاولى من السنة ٢٠٠٠ حتى السنة ١٤٠٠ ودامت الثانية من السنة ١٦٠٠ حتي السنة ١١٠٠ قبل المسيح . نشأت الاولى ببطء في جزيرة متوسطية ، فأثرت في ولادة الثانية أولاً ، ثم امتدت في وريثتها بعد زوالها ؛ ووفقت الثانية بين ما تقبلته

أو استلبته وبين ما جاء به افرادها من السهول الشمالية . الأولى محلية ومستقلة والثانية نتـــاج المهاجرين الذين بنوها بمستوردات خارجية . الأولى تفرغت للتجارة بنوع خاص، والثانية نزعت الى الحرب واتصفت بانها بحرية وبرية على السواء . الأولى أنيقة ورقيقة ، والثـــانية اكثر قسوة وسعياً وراء الذهب .

فجليّ اذن ان هاتين الحضارتين تتكاملان جزئياً وتتقابلان ايضـــاً . وليس من سبيل لدرسهما مجتمعتين .

حدود المستندات

بيد انه يجدر بنا ، قبل الشروع بهذا الاستعراض المزدوج ، ان نلفت النظر الى واقع يفسر نواقص هذا الاستعراض والتحفظـات التي ستتخلله أحياناً كثيرة : ان حل رموز الكتابات التي استعملها الايجيون لم يتوصل بعد الى النتائج المتوخاة. وليست المستندات ما يعوزنا ؛ فهنـــاك ، على الأخص ، اكثر من ١٥٠٠ سبّورة غرينية مجففة بالحرارة اكتشفت في اطلال كنوسوس وحدها ، وعدة مئات اخرى عثر عليهـا في بيلوس من اعمال البلوبونيز . ويستدل من ذلك ان القصور كان لها مكاتبها ومحفوظاتها وربما مكتباتها ايضاً ، ثم ان كريت قد زودتنا ، بالاضافة الى ذلك ، بالكثير من العاديات ، لا سيما الاختام والخزفيات التي تحمل رموزاً كتابية . فالكتابة اذن لم تكن وقفا على الادارات ؛ واذا اعتمدنا على وجـه استعمال بعض هذه العاديات ، جاز لنا الاستنتاج ان الافراد، حتى في الطبقات الاجتماعية الدنيا، كانوا يفهمون هذه الرموز. وقد اعتمدت في الكتابة ثلاث طرائق على الاقل احداها هيروغليفية والاخريان كتابيتان ، وقد بذلت جهود كثـيرة غير مثمرة لكشف سرّهـا . فقيل : «تنتظر كريت شمبوليونها »؛غيران شمبوليون قدوفق الى حجر الرشيد الذي نقشت عليه كتابة في لغتين مختلفتين ، وهذا ما لا يتوفر هنا . ولكن العلماء البريطانيـــين ، في اواخر السنة ١٩٥٣ ، قد كشفوا عن النتائج التي انتهوا اليها في تطبيق اساليب جديدة على احدى الكتابات . وما لبثت هذه النتائج ان فرضت نفسها على المعنيين بهذه الكتابة. ويمكن القول اليوم ان الأخيين تكلّموا وكتبوا ضرباً من ضروب اللغات اليونانية التي اصبحت بعض مفرداتها ، منذ اليوم، سهلة القراءة والفهم . وليس من ضرورة للتنويه بالآمال المعلّقة على هذا الحـــل . فاذا ما استجلي واكتمل وتنـاول المستندات الاخرى ، قد تنقلب النظريات المأخوذ بها رأساً على عقب ، حتى تلـك التي اوجزناها في الصفحات السابقة . ولكن الحل لا يزال في بدايته .

لذلك يجدر بنا ، في الوقت الحاضر ايضاً، ان نكتفي بالتقاليد التي نقلها الاغريق وشوّهوها احياناً وبما اسفرت عنه اعمـال التنقيب من آثار وافرة منذ السنـــة ١٨٧٥ في البلوبونيز ومنذ السنة ١٩٠٠ في كريت .

٢ – الحضارة الكريتية

الملكية المينوسية

ليس لدينا من الحقائق الثابتة حول الملكية المينوسية الا النزر اليسير .

فتعدد القصور في النصف الاول من الالف الثاني يحدو بنا الى الاعتقاد بتعدد الممالك . ومع ذلك فليس من مدينة احيطت بالاسوار، ولم تظهر القصور بمظهر الحصون الا لفترة قصيرة . فلم تكن الجزيرة اذن ساحة حرب بين اطماع متنافسة . ومهما يكن من الامر ، فان كنوسوس قد ضمنت لنفسها الغلبة الاخيرة كما يشهد بذلك الازدهار الذي انتهت اليه والذي يثبت سيطرتها على الجزيرة بكليتها . اما الحياة النائطة التي استمرت في المساكن القروية الغنية فلا يجب ردّها بالضرورة الى الملوك الصغار، بل الى الحكام الذين تعينهم السلطة المركزية . وان الغنى المادي الذي تتصف به الحضارة الكنوسوسية لدليل ثابت على غنى هذه الملكية . وكان للقصر مصانعه ومخازنه وجمهور غفير من العمال والخدم. واذا ما استندنا الى اهمية المكاتب والمحفوظات الكتابية، جاز لنا التأكيد بان الملكية قد سعت لتحقيق نوع من المركزية. بيد انه يتعذر علينا الادلاء بشيء عن الاساليب الادارية المتبعة .

لا تجوز المغالاة هنا في الكلام عن ملكية قوية او عن امبراطورية مينوسية. اما القوة البحرية فلا يرقى اليها شك، اذ بدونها يصبح تحصين المرافىء والمدن والقصور امراً لا مفر منه . ويعتبر مينوس في التقليد اليوناني مؤسس اول ملكية بحرية ايجية . ويثبت اتساع حركة المقايضات ، مع جميع بلدان المتوسط الشرقي، ان هذا البحر، كما يؤكد توسيديد ، قد طهر من القراصنة. ويضيف المؤرخ نفسه ان مينوس قد اقام «ابناءه» رؤساء للمستعمرات في معظم جزر السيكلاد، مما يحمل على الاعتقاد بسيطرة سياسية على الجزر . غير ان علم الآثار لم يكشف عن اي نفوذ هام خلال عهد الازدهار في كنوسوس . ولولا اسطورة المينوطور ، وهو مسخ مينوس الذي توجب على الاثينيين ان يقدموا له كل سنة ضحية بشرية ، لكنا اكتفينا بالقول ان اثر الحضارة الكريتية في اليونان قد اقتصر على الاشعاع فقط . فهنالك اذن صلة انتساب وخضوع لم ينج منها ، بالتأكيد، سوى الارغوليد وقبرص والساحل الآسيوي . اما تلك المواقع القليلة المتشتتة التي احتفظت باسم مينوس فلا تكفي لان نرسي عليها القول بامبراطورية كبيرة حقيقية .

وعلى نقيض ذلك كانت القوة العسكرية اقل شأناً . اجل ، ان على «اناء الرئيس» رسماً لضابط صابر على حمل الاسلحة ، وان اخربة كنوسوس حوت مخازن للاسلحة . ولكن هذه الادلة تبقى محدودة الاهمية . فالملكية الكريتية اعتمدت على بحريتها ، ولم تقو بحريتها على ان ترد عنها هجمات الغزاة المستلبين ولا الكارثة الكبرى النهائية .

كان للملكية صفة دينية . وليست الرسوم التي تزين قاعة العرش في كنوسوس والغرف الملاصقة لها مجرّد رسوم جمالية فحسب . الملك يقبض على صولجان وتحيط به بعض الرموز : زهرة الزنبق وخصوصاً الفأس المزدوجة التي كثيراً ما رسمت على الأعمدة والجدران ايضاً . وكانت هذه الفأس ، عند بعض شعوب آسيا الغربية ، شعاراً دينياً وخاصية من خاصيات بعض الآلهة كـ « تيشوب » الحوري و « حدد » الدوليكاني . وقد نقل الأغريق اسمها الآسيوي « لابريس»؛

وليس ما أطلقوا عليه اسم « لابيرنت » سوى قصر كنوسوس ، قصر الملكية التي ترمز إليها الفأس المزدوجة . فليس من ريب إذن حول العلاقة بين هذه الملكية والديانة . ولكن لا شيء لدينا يساعد على توضيح هذه العلاقة ، حتى تلك القصة التي رواها افلاطون .

لسنا بحاجة الى التقليد اليوناني كي ننسب الى الملك مهام قضائية . فهو قد تدخّل ، في كل مكان ، في واقع السلطة الملكية وجوهرها . ولكن هل يجوز لنا ، اذا جعل الاغريق من مينوس قاضياً للجحيم لا تلين له قناة ، ان نستنتج ان سلالته من بعده قد اشتهرت بتقشف خاص ؟

ويستدل من قلة ما نعرفه وكثرة ما نجهله ان الملكية المينوسية ، حتى لو حملت الحضارة الكريتية طابعها واستحال ادراكها بدونها ، أبعد في الوقت الحاضر من ان تجعل درس هذه الحضارة أمراً مغرياً يوجب الاهتمام .

النشاط الاقتصادي

بيد ان الأمر على خلاف ذلك في بعض مظاهر الحياة الاقتصادية على الاقل. ويمكننا القول ان الزراعة كانت مزدهرة ، اذا ما أخذنا بعين الاعتبار نسبة الجودة المحدودة في تربة البلاد الايجية ، واحتلال الجبال للقسم الأكبر من مساحة الجزيرة ، واستطالة فصول الصيف الجافة فيها ، والحاجة للري بسبب فقدان الانهار الكبيرة .

ولم تتمكن الديانة نفسها وتستقر الا بتأثير الحياة الزراعية دون غيرها تقريبا. ولم تتطور بعد ذلك حتى عندما تنوعت اعمال الانسان ومشاغله . وقد اشتهر الكريتيون الى حد بعيد في الاستفادة من كل الموارد الطبيعية ، ويثير حذقهم ، مع حفظ الاقيسة ، الاعجاب نفسه الذي يثيره العمل الزراعي المنظم في الاودية النهرية الكبيرة من الشرق . يغلب على الظن ان انتاج الحبوب ، ابان عهد الازدهار ، لم يكن ليفي بحاجة السكان ، في حال ان انتاج الاشجار المثمرة ، الكرمة والزيتون خصوصا ، يفيض عن الحاجة ويصدر بعضه . وقامت ، الى جانب ذلك ، تربية المواشي حتى الابقار منها ، وقد كيّف بعض الفلاحين حياتهم ، بفضل المساكن الفصلية ، وفاقا لحركة ارتياد الكلأ بين السهول والجبال . وعرف الحمار منذ زمن بعيد ، ثم ظهر الحصان قبيل الالف الثاني غير ان استخدامه لم يصبح شاملا . وكان الصيد ناشطاً جدّاً في بعض النقاط من الشاطىء ، يستهدف ، بالاضافة الى سدّ حاجة من حاجات التغذية ، الحصول على صدف « المورکس » الثمين الذي يستخرج منه الارجوان . وفي استطاعتنا ان نطيل هذا الشرح الموجز بالكلام عن القفران والازهار والاحراج وغيرها . ولكن هذه الاشياء كلها ، ولو مجموعة ، ابعد من ان تعلّل ازدهار كريت الذي ارتكز دونما ريب الى قواعد اخرى راسخة .

يؤيد نشاط الصناعة اكتشاف المعامل الملحقة بالقصور ومدينة اصحاب الحرف ، غورنيا ، في اقصى الخليج القائم الى الشمال الشرقي من الجزيرة . وقد اكتشفت واستسيغت في جميع حقول الانتاج تقنيات على قسط كبير من الكمال . ويستدل من دقة الخزفيات ان الكريتيين استعملوا مخرطة سريعة الدوران . وقد توصلوا ، باكراً جدّاً ، في حقل التعدين ، الى

اتقان التنزيل والتغشية والالحام . اما الصياغة وصناعة الاسلحة من البرونز والمعادن الثمينة فلم تكن ادنى مستوى من اجود الصناعات في مصر وبلاد ما بين النهرين .

وأفضت الصناعة الى تجارة عارمة لم تعوزها التجهيزات الفنية اللازمة . أجل ليس الانسان من أنشأ المرافىء ، فلم يقتض للملاحة سوى الشطآن الطبيعية : ونحن لا نعلم شيئاً عن المراكب التجارية ، ولكن يكفينا ان نحيط علماً بالمراكب الحربية ، اذ ان الاعمال الانشائية قد تقررت لها وحدهـــا في البدء . وقد توفرت في الداخل شبكة من الطرقات المرصوفة بالألواح الحجرية والمعدّة في الاساس للحيوانات قبل العجلات ، تؤدي الى المدن التجارية والقصور . وقد عُمل في الجزيرة ، على غرار الشرق ، بنظام معين للمقاييس والمكاييل ؛ فكانت هنالك سبائك من نحـاس واسطوانات من معدن ثمين تسهّل المقايضات ، وقد وسمت احياناً بعلامات خـــاصة للدلالة على قانونيتها ، ولكن لا شيء ، ويا للأسف ، يخبرنا عن القانون التجاري . فكيف نتصور ان كريت التي ربطتها بعالم ما بين النهرين علائق ثابتة قد اهملت المقارضة على انواعها : المقايضة والشراكة وغيرهما ؟ ولا يمكن ادراك تطور هذه التجـــارة دون جهاز قضائي يراعي الظروف الخاصة للتجارة البحرية .

فكان من الواجب ، ودلك عن طريق البحر فحسب ، تموين الصناعة بالخامات غير المتوفرة في الجزيرة وتصريف انتاجها في الخارج . وقد أمّن النقل البحري خير تأمين هذه المهمة المزدوجة ، فلم تعوز الفنانين الكريتيين الحجـارة ولا المعـادن المختلفة . وقد عثر على بعض مصنوعاتهم في مصر وقبرص وعلى الشاطىء الفينيقي (جبيل وأوغاريت ورأس شمرا) وعلى شواطىء آسيـا الصغرى وفي اليونان ، كما عثر على الكثير منهـا في جزر السيكلاد حيث كانت جزيرة ميلوس خاصة ، على ما يبدو ، فرعاً اقتصادياً تابعاً لكريت .

طريق بحر ايجه المعترضة

لقد استهدفنا قبل اي شيء آخر ، من هذه العلائق المتعددة ، تفسير الثروة البـادية في الحضارة الكريتية . ولم ينطفىء الاثر الذي تركته بل اتسع مكانه في التقليد اليوناني حتى ان هوميروس سيتكلم عن الجزيرة « الجميلة والخصيبة والمروية والآهلة بسكان لا حصر لهم وذات المدن التسعين » .

وهنالك اكثر من هذا . فمع هذه الحضارة تبرز للمرة الاولى في العالم القديم ، حياة اقتصادية تسيطر عليها التجارة البحرية . وتضفي عليها هذه الميزة جدّة اكيدة بين الحضارات الشرقية التي تمت اليها باكثر من صلة . وكان ذلك بحكم المحتم في جزيرة فرضت الطبيعة فيها على الانسان ظروفا حياتية تختلف كل الاختلاف عن تلك التي فرضتها عليـــه في وادي النيل والفرات

وقد اعدّها موقعها لدور قامت به خير قيام ، وهو انها ، تسهيلا للاتصالات والمقايضات المتنوعة ، فتحت طريقا جديدة تمر في المتوسط الشرقي من الشرق الى الغرب وتلتقي ، عند قبرص ، الطريق الشمالية الجنوبية الموارية للشواطىء الاسيوية والمعروفة والمتبعة منذ امد بعيد ،

كما تشهد على ذلك علائق مصر بجبيل . قبل ذلك ، كان الاتصال التجاري بين اوروبا وآسيا يتم عن طريق المضايق بنوع خاص . وانما «طروادة الثانية » ، احدى المدن التسع المشيدة فوق مرتفع هيسّارليك ، مدينة لهذا الاتصال بازدهارها حوالى السنة ٢٣٠٠ قبل المسيح تقريبا ، وان كانت مدينة به ايضاً لعلائقها ببلدان البحر الاسود . غير ان هذه الطريق ، عندما سيطر الكريتيون على البحر ، لم يسلكها تقريبا سوى جماعات الهنود الاوروبيين المصممين على استيطان آسيا الصغرى . وهكذا فان كريت قد ابدلتها بطريق اقصر جداً لان مراسي سفنها في الشرق اكثر قربا من مواطن الحضارة الكبرى في الشرق الادنى .

المجتمع

لا نعلم الكثير عن الحياة الاجتماعية ، ولذلك فان ما سندلي به عنها سيكون على كثير من الاجتزاء والنقصان .

انه لمن الاهمية بمكان ان نستطيع سبيلاً الى تعقب خروج الانسان من الجماعة الكبيرة وتوزع المجتمع الى اسر صغيرة . ويعتقد البعض بان في علم الآثار دليلاً على ذلك . فقد عثر بالفعل على بعض المساكن القديمة الوضيعة المقسمة غرفاً حتى العشرين تقريباً ، في حال ان البيوت العادية ، بعد ذلك ، كلها بيوت لاسرة واحدة . ولكن الغموض لا يزال يكتنف حقيقة تعليل هذه المساكن الجماعية . ومن خطل الرأي ومزيد الجرأة ان نتكلم عن الاحزاب في جزيرة كريت .

وهنالك ، في موضوع الاسرة ، واقع يبرز بجلاء من المستندات ، وهو ان المرأة في المجتمع الكريتي تتمتع بمركز وبحرية لم تعرفهما في ذاك الزمن نفسه ، في أي مكان آخر ، وسيقتضي لهما وقت طويل جداً حتى تبلغهما . فسواد الآلهة من الاناث وللكاهنات الدور الأول في الاحتفالات . وغالباً ما تظهر الرسوم نساءً خارج بيوتهن ، في الساحة العامة والمسرح وحلبة الملعب . ولكن علينا الاكتفاء بالتأكد من حقيقة هذه الاعراف الخاصة ، دون محاولة تعليلها .

نحن نجهل كل شيء عن النظام الزراعي وعن تنظيم الطبقات الاجتماعية الدنيا التي نهضت بالانتاج الزراعي والصناعي واعباء النقل التجاري . ويعطينا تراكم البيوت — المصانع الصغيرة التي تتدرج المنحدر الى الوراء من غورنيا ، الدليل على واقع غني عن البيان ، وهو وجود الفقراء في كريت كما في كل مكان .

لن نتوقف هنا سوى امام المساكن الكبيرة والقصور . فهي قد زخرت بحياة متألقة بهجة صافية ، أي بحياة بلاطية . وقد وفّر الذهب والفضة والبرونز واللآلىء والحجارة النادرة المادة الضرورية لأسلحة الابهة والحلى والجواهر والخواتم والفصوص التي جمعت الذوق اللطيف الى كمال الصنع . وقد شاع زي نسائي مستحب يستلزم « التنانير » الناقوسية ذات الاطار ، والصُّدَر التي تكشف العنق والكتفين ، والأكمام الفضفاضة . وقد استعمل الرجال حلاهم أيضاً ورغبوا في الأقمشة والجلود الملونة ، ولكن تبرجهم كان أقل تعقيداً . وكان للشرفات والازهار وسعة العيش مركز مفضل . وكانت هنالك اقنية محكمة التصميم لتوزيع الماء على المساكن التي لم تخل

حتى من البواليع ؛ وسينقضي بعد ذلك وقت طويل قبل ان يفكر الانسان ، مـــن جديد ، بالاهتمام للتدابير الصحية المعتمدة الى حد بعيد ، في كريت المينوسية ، اكثر من ألف وخمسمائة سنة قبل المسيح .

ولكن كل هذا ، بالرغم من فتنة هذه الأدلة ، لا يتعدى المظهر المادي لحياة اجتماعية نتمنى لو نستطيع تحليل اجزاء نظامها المختلفة .

الديانـــة

يصح القول نفسه تقريبـــاً عن الديانة التي لا سبيل للدنو منهـــا إلا من خلال الفن .

ان اسهام كريت في النظريات الدينية التي اخذت بها الحضارات الشرقية المعاصرة لها أبعد من ان يكون شاملاً . بيد انه يمكننا ان نحاول ، انطلاقاً منه ، تعليل وفرة الكائنات الوهمية الشيطانية ذات الوجه الاصعر : رجال ونساء برؤوس حيوانات ، ابو الهول ، العنقـاء المغربة ، الجنّ المجنّح . وما المينوطور في علم الاساطير اليونانية ، على الأرجح ، سوى أثر من آثار هذه الكائنات المسيخة . ويبدو بصدد الآلهة انفسهم ، ان الكريتيين أخذوا بمبدأ التشبيه . ويغلب ان الاسلحة (الترس والفأس المزدوجة) والطيور والحية والثور لم تكن سوى خاصيـــات أو رموزاً . بيد ان الامعان في تمثيل الشجرة وسط الاحتفالات الطقسية او على المذبح احياناً يحملنا على الاعتقاد بانها كانت موضوع عبادة مباشرة هي من رواسب الوثنية البدائية . وعلى كل حال ، فليس هناك ، على نقيض الشرق وعلى ما نعلم ، أي جرم مؤله . كما ليس من إله للهواء أو إله للبحر ، وهذا ما يثير العجب اذا ما اعتبرنا دور البحر في الحياة الكريتية . ويغلب ان الديانة انمـا تستهدف تمجيد خصب الارض المغذية . فوفرة الرسوم النسائية ، والميل الملموس الى ابراز الكشحين وتعرية الثديين بوضع اليدين متشابكتين عليهما احياناً ، وإشراك هـــذه الرسوم برسم الشجرة والحية التي هي حيوان ما تحت الارض الاول ، كل ذلك يحدو بنـا الى الاعتقـاد بوجود عبـــادة اولى تتجه الى ما يمكن ان نسميه « بالأم الكبيرة » ، اعني بها إلهة الارض والاخصاب . والإله الذكر المفروض وجوده الى جانبها لا يتمتع إلا بمركز ثانوي اكيد . ولكن هل يجوز لنا ان نرد كل ما لدينا بعض آثاره الى هذه الازدواجية؟ يجب علينا قبل الاقدام على هذه المحاولة ، ان نتمكن من قراءة الاسماء الالهية .

ان المعبد الذي لا مناص عنه للعبادة في غير مكان لا أثر له هنـــا . ولسنا نجد سوى بعض المساجد الصغيرة قائمة في المساكن الكبيرة أو منثورة في البلاد، أو سوى المذابح وحدها احياناً. وهكذا فان العلاقة بالشرق لم تفض الى اعتماد الابنية المخصصة لسكن الاله . اما الاعياد ، على نقيض ذلك ، فأكثر تشابهاً بالعادات الشرقية . فهي تظهر ، هنا ايضاً ، المراحل الكبرى للحياة الزراعية ، ولا سيما الحصاد وجني الاثمار ، وتتخللها التطوافات والرقصات المقدسة السعرة احياناً على انغام الموسيقى . بيد انه لا يمكننا ان نستنتج من ذلك ان هنالك نقلاً أو اقتباساً . ويتخلل

الاحتفالات الدينيـــة مشهد غريب ، غير المسرحيـــات التي درجت عند المصريين ايضاً ؛ بل الالعاب العامة مع ما يرافقها من معارك الملاكمة والمصارعـة وسبـاق الثيران بنوع خاص ، ولم يعرّض ذلك للموت على ما نعلم ، بل كان فرصة يظهر فيهـا اللاعبون خفتهم ومهارتهم . ولم تتردد بعض النساء انفسهن في الاشتراك في هذه الالعاب .

احرزت هذه الالعاب نجاحاً اكيداً كبيراً . ولكن هل كان لها ، عملياً على الأقل ، معنى غير ديني ؟ لا نستطيع ثبت ذلك او نفيه . ويبدو على كل حال ان المثل الأعلى الطبيعي للكريتي هو نفسه المثل الأعلى للرياضي . واذا ما استندنا الى الرسوم المصورة فليس من بدين واحـــد في البلاد التي اكتسب الكلّ فيها قدّاً نحيفاً جداً . وما من شك ايضـاً في ان هواية الرياضة هذه ، حتى ولو ارتبطت بالديانة ، تنمّ عن الأخذ بمفهوم جديد للانسان المدعو لانماء صفاته الطبيعية في سبيل هدف غير الحرب وتحضيراً لمجهود فردي بالضرورة .

ولا تتراءى الآراء حـول الموت إلا جزئياً أيضاً . فلا يقتصر على دفن الجثة في قبر على هذا المقدار من الغنى أو ذاك . بل توضع على مقربة منها أدواتها المألوفة أي كل ما قد تحتـاج اليه في المداومة على حياة لا يضع الموت لها حداً . وتخصص للجثة بعد ذلك التقادم الغذائية وغيرها ، تلك نفسها التي يستحسنها الاله . وهكذا فان الحياة الثانية قد يرافقها شيء على الاقل ممّا يدنيها من العالم الالهي . ان ماووس الثالوث المقدس الشهير المستغشى بالرسوم المصورة يرينا الميت منتصباً أمام قبره ناظراً الى حاملي القرابين وهم يتقدمون نحوه . ويرينا أيضاً عربة قطر بها الاحصنة من جهة والعنقاوات من جهة اخرى . ولكن هل تنقل هذه العربة الميت ؟ الحكمة أولى في هـــذا الموضوع أيضاً .

الفـــن

ان الفن ، مع التجاره البحرية ، هو النطاق الذي اثبتت فيه الحضاره الكريتية صفاتها المميزة واحررت اكمل نجاحاتها التي ليست بحاجة الى توضيح بقراءة النصوص لان صفة الجمال فيها تسحر كل من يشاهدها . هنالك فنون معاصرة تفرض الاحترام بسعة المفاهيم التي تعبرعنها وقوّة الوسائل التي تستخدمها ، في حال ان الفن الكريتي لم يسهم باي شيء عظيم ، بل كأنه يتنكر لكل ماهو عظيم متحاشيا تحقيق المواضيع الكبيرة ، ولكنه يستعيض عن ذلك باحساس حاد حيال الحياة وملاحظة الواقع ، وبقابلية لاكتشاف الـــناحية التزيينية التي يمكن استخلاصها من كافة الاشياء ، وبذوق سليم مكتمل حيال الالوان والاشكال ، وبحيوية عجيبة في الاكتشاف وبمهارة فنية مدّوخة . ان الفنانين الذين انبثقوا من هذا الشعب ولم يتميزوا نوعاً ما عن جمهور الفنانين الآخرين ، لم يروا ما هو عظيم بل رأوا ما هو جميل .

فلا معابد إذن ، ولا مدافن كبيرة ولا مساكن رائعة أيضاً . واكثر القصور اهمية ، بما فيها قصر كنوسوس نفسه ، لم تشيد وفاقا لتصميم مدروس . لا بل انها تؤلف عوالم قارب بناؤهـــا المتعاقب اقسامها المختلفة التي لا يتسرب اليها حتى النور الخافت من الفناءات الداخلية او من

اروقة طلقة السماء . ويتصل الواحد بالآخر ، كيفما اتفق الاتصال، بشبكة مستغلقة من الممرات والأروقة ذات الاعمدة – وهذا هو « اللابيرنت » الذي تتكلم عنه الاسطورة . ولكن هـذه العيوب في الفوارق بين مستوى وآخر قد سترتها المهارة في انشاء السطوح . ولم يُعبأ قط باعطاء هذه المجموعة البنائية الجليلة بقياساتها – يبلغ ضلع قصر كنوسوس الاخير ١٥٠ متراً ، وكان مؤلفاً من طبقتين أو ثلاث طبقات– أي تناسق يوحي النبل والجلال . وكان بالامكان، للاستعاضة عن الوحدة الداخلية ، ان تشيّد « واجهة » رئيسية وينشأ فيها باب فخم ينتصبـان امام القادم الى القصر . غير ان الواجهة والباب لا وجود لهما ، بل هنالك ابواب عدة في الاسوار الخارجية تهشم خط النطر العام .

ولكن حداً أدنى من التنظـيم يسهم في التقسيم الداخلي . فهنالك بهو كبير في الوسط : ٦٠ م × ٢٩ م في كنوسوس . وهو ليس مقفراً ، بل فيه المذابح وما تستتبعه من حفر للضحايا . غير ان « الواجهات » المطلة عليه تكاد تكون رتيبة . وترى حواليه بعض « الاحيـاء » : حي قاعات الابهة والاسلحة وأحياء المساكن الخاصة والمكاتب وعامة الشعب . وان في تجمعها بعض التلاحم ، ولكن التشويش يظهر داخل كل حي من الاحياء التي تتوسطهـا فناءات ثانوية صغيرة جداً اشبه احياناً بالآبار .

على الرغم مما يبدو في هذا التكديس من مغايرة للمنطق ومن ان هذا العـالم المشوّش يعوزه الجـلال ، ومن ان اكبر القاعات – قاعة الأعمدة المزدانة بالفؤوس المزدوجة في كنوسوس– لا تتجاوز ١٢ متراً طولاً و ٨ أمتار عرضاً، فان في الابتكارات الهندسية الجزئية احياناً انسجام اناقة يستوقف الناظر بسحره : تصميم بعض السلالم وتنظيمها ، إحكام الأعمدة التي تقوم مقـام بعض الجدران الجانبية ، الوقع الموفق والمقصود في توزيع الظلال والاضواء .

وهنالك بنوع خاص زخرف الجدران، لا سيما في قصر كنوسوس الاخير الذي يثبت ، بذلك وبقياساته ، تميزه عن القصور الاخرى . ولا وجود للتماثيل في هذا الزخرف ، فالحزيرة كلهـا لم توفر لنا على هذا الصعيد سوى حطام وضيع . وليس من نقوش ناتئة على الحجر ايضـاً ، بل هنالك رسوم ملونة على جص ادخل عليه بعض النتوء قبل الرسم . والزخرفة عرف قديم جداً لن يلبث التصوير على الجدران ان يحل محلها ، مع الزمن ، بمشاهده الحية .

عندما يصور الفنان كائناً بشرياً ، يستأثر الوجه كل اهتمامه فيطبعه بالحيـاة وقوة التعبير والصفات المميزة التي تحملنا على ان نرى فيه رسماً لاحد الاشخاص . وهو لا يهتم ، فيما عدا ذلك، للتفاصيل التي يعالجها بسرعة . « فباريسية » كنوسوس مثلاً ليس لها اذنان ، كما اهمل في كل الصور تكوين الجذع والاعضاء . فالمهم هو الحركة حين حدوثها واختلاجها ، ولذلك يتسرب الى المواكب نفسهـا بعض عدم التناسق والتشويش . وان ما يلفت النظر هو التصميم عـلى الحرية . فالانسان لا يتقيد بالقدسيات ولا بالأوضاع التقليديةاو الاصطلاحيـة ولا بالحركات المفروضة ،

ولا يخضع إلا لقانون حياته الشخصية . واذا كان الأمر على ما هو عليه بالنسبة للرسوم التي يحققها الفنان ، فهل يمكن ان يعترف بقانون آخر بالنسبة له شخصياً ؟

نشط الفنان إذن في تصوير حركات الفرد حين حدوثها وعلى طبيعتها ، ولكنه كان اكثر براعة في تصوير الحيوانات فحقق في هذا المجال روائع لا تنسى : التور الواثب ، والنمر القانص، والقرد المتقدم بين الأزهار ، والطير عند هبوطه ، والسمكة الطائرة عندما تثني جوانحها كي تغطّ في المياه المزبدة ، والأخطبوط بمجاسّه المتماوجة . ليس ثمة من وضع جامد ، بل حركة توحي بما سبقها من حركات وما سيتبعها منها ، أو عمل مختلف المراحل بفصل رسم حيوانين أو ثلاثة في فترات مختلفة من العمل نفسه ، أو استعادة بالغة للحياة في تغيّرها ونشاطها ولينها .

بيد أن هذا السعي وراء تصوير الحركة لا يفقد الصورة شيئاً من قيمتها الزخرفية التي يتوصل الفنان الى تحقيقها دونما اعتبار لأي تناسق . ففي سبيل التواء القرن مثلاً ، نراه يحطم حاشية الاطار ، وهو لم يكتف بمراقبة « العدو الطائر » المزعوم عند بعض رباعيات القوائم الكبيرة – وهذا الخطأ الذي يعود إليه قد استمر حتى « ماراي » قبيل السنة ١٨٧٠ – بل جوّف احقاء الحيوان وأعلى منه الرّدف بغية ابراز رشاقة خط الظهر . ويقدّر انه استوحى من العالم البحري الذي يعرفه تمام المعرفة ، بفضل وجوده في جزيرة ضيقة ، اكثر من نصف الحيوانات (أسماك وأصداف وغير ذلك) التي صورها ، وان ما يقارب نصف الباقي هو من ضروب العصافير . ومردّ ذلك انه يجد عند هذه وتلك أشكالاً أوفر لدانة وتموجاً تضع امامه المزيد مما يشبع نهمه للتناسق الزخرفي . وهو يستوحي ، من البحر ايضاً ، غالبية المناظر الطبيعية التي يجعل الكائنات الحية تتجول فيها بين التواءات الأمواج وتحطّمها ، الأشكال الرخيصة ، والصخور الناتئة . وتستهويه ، في عالم النباتات البرية ، الجذوع والأزهار كمواضيع تزيينية ايضاً . ولكنه لا يستسلم لفتنة الوصف ولا للإكتار على غير نظام . فإن ما انطبع عليه بالفطرة من اتزان وتمييز يجنبه ركوب الشطط والزخرفات التافهة . فالطبيعة ، الى جانب الحركة ، تغذي بنفسها إلهاماً أحسن هو رقابته ، حتى في ميعة الدوار .

وقد برهن عن المزيد من الجرأة في معالجة الألوان التي جهل منها الباهت ، ولجأ الى الحارح دون أن يعبأ بالالوان الثانوية التكميلية او بالالوان الواقعية . فالعصفور والقرد أخضرا اللون مثلاً في « بيت الصور » في كنوسوس ، كما أن خطاً قرمزياً يحيط ببقع من لون واحد. وما كنا لنصف ذلك بغير البرقشة ، لو لم تكن هذه الالوان مختارة عن قصد وتصميم توصلاً الى الفتنة والسحر في الزخرف .

اعتمدت طريقة تعدد هذه الالوان ، أول ما اعتمدت ، منذ القرنين الثامن عشر والسابع عشر في الأواني الخزفية المنسوبة لـ « كاماريس » . ولكن هذه الطريقة لم تلبث ان أهملت في الخزفيات ودام استخدامها في الصور الجدرانية ، في حال ان طريقة التصوير وفقاً للأشكال قد

خضعت لتطور واحد في الصور الجدرانية والأواني الفرينية ، وفي حفر الحجارة ونقش الاواني المعدنية . بيد ان ما قلناه عن المواضيع المطروقة وأساليب طرقها ينطبق على عهد ازدهار الفن الكريتي بنوع خاص ، في القرن السادس عشر وأوائل القرن الخامس عشر . وبعد ذلك تهذب هذا الفن وانقاد لنظامية قد تفسرها نجاحات الملكية الكنوسوسية . وفي التعبير التقليدي « نمط القصر » اشارة واضحة الى مغايرة هذا الخط للخط الطبيعي الحر المستعذب الذي سبقه . وقد أفضى التهذيب تدريجياً الى تبسيط الأشكال دونما قاعدة او منطق. فأحل القرد محل الفرس، وفصلت المجسة عن الأخطبوط فغدت مجرد طريدة متماوجة فحسب. ولكن هذا التصنع المنحط قد برز بعد انهيار كنوسوس على الأخص في الحزفيات الميسينية التي بقيت رائجة ، بالرغم من ذلك ، في اسواق الخزفيات الكريتية في حوض المتوسط الشرقي .

٣ – الحضارة الميسينية

ان الإرث الكريتي الذي انتقل الى الميسينيين من الأهمية بحيث أننا سنقتصر ، تجنباً للاعادة النافلة ، على الفوارق الملموسة بين الحضارتين، اي الأشياء الجديدة التي أضافها الأخيون . وليس هؤلاء مدينين بهذه الاشياء الجديدة للبلاد التي عاشوا فيها . فبين جنوبي اليونان وكريت فوارق طبيعية طفيفة لعل أهمها ماينتج عن التفاوت في شدّة البرد في فصل الشتاء . فلا شيء من شأنه ان يؤثر جدّياً في تطوير الظروف الحياتية ، ثم ان الحضارات التي ظهرت في اليونان قبل مجيئهم لم تترك لهم شيئاً يذكر، لا بل لم يكن لديها إلا القليل مما تستطيع ان تتركه ، إذ لا شيء فيها يضاهي الحضارة الكريتية . واذا لم يقبلوا بأن ينقلوا تنظيمهم وحياتهم عن الكريتيين، فمرد ذلك الى انهم قد جاؤوا بنظريات وأخلاق وعادات خاصة بالهنود الاوروبيين ، وبأناس قضوا زمناً طويلاً في بلدان اخرى لا سيما البلدان الشمالية .

الامراء المحاربون

تظهر الحدّة ، أول ما تظهر ، في التنظم السياسي والاجتماعي؛ لأن الآثار المادية التي خلّفها كبار هذا العالم أبعد من أن تقارن بآثار كريت .

ان القصور والمدافن الكبرى تفرض الاعتقاد بتعدد الامراء . وكان منهم في ميسين وتيرنثوس، وهما موقعان غير بعيدين عن بعضهما في الارغوليد. بيد ان شهرتهم لا تفرض الاعتقاد بعدم وجود غيرهم في غير مكان : في الارغوليد نفسها ، في غربي وجنوبي البلوبونيز ، في القسم الأعلى من أتيكا ، في بيوسيا . ولم يوجد بين هذه المجموعات السكنية المتشتتة مجموعة بأهمية كنوسوس . أما ثروة ميسين الذهبية الطائلة فقد يكون الفضل فيها لمجرد الاتفاق في اكتشافها ، وهي على كل حال مقتصرة على المصنوعات دون غيرها ، لا يرافقها اي تفوق في الهندسة والزخرف . وفي القصائد الهوميروسية نفسها ، حيث المخيلة تعظم الواقع ، ليس اغا ممنون ، ملك أرغوس اي ميسين ، ملك الملوك إلا بصورة مؤقتة وحملة عسكرية معينة .

ويصبح التباين اكثر وضوحاً حين ننظر الى القصور نفسها . فهي حصون قبل كل شيء آخر،

شيّدت في موقع تسهّل طبيعته الدفاع عنها . وغالباً ما يكون هذا الموقع مرتفعاً مشرفاً على السهل المحيط به . يصعد الى هذه الحصون بسلالم خارجية تتخللها العراقيل والابواب، وبسلالم محفورة في الصخر وبأبواب خفية . وقد أتي بالصخر من كل مكان لتشييد تلك الجدران التي سيصفها الاغريق « بالسيكلوبية » أي الضخمة ، لأن حجارتها ستبدو لهم هائلة . ففي جزيرة « غلا » في بحيرة كوباييس البيوسية يبلغ محيط السور ثلاثة كيلومترات ، وفي تيرنثوس أنشئت سراديب معقدة في الجدران التي تبلغ سماكتها ستة امتار .

فلا سبيل ، والحالة هذه ، الى الاعتقاد بملكية واحدة حتى ولو افترضنا انها منحت بعض اصحاب الاقطاعات اجزاء من اراضيها . لذلك وجب القول بقيام امارات مستقلة يغلب على ظننا انها تنافست وتصارعت . اما القول باولوية شرفية معترف بها لأحد الامراء توليه حق القيادة في المشاريع الجماعية ، فلا يستند الا الى الالياذة . ربما استلمت الارغوليد زمام الامور في النهاية ، لكن ميسين وتيرنثوس قد استمر بقاؤهما جنباً الى جنب ، مما يضعنا امام معضلة مستعصية الحلّ .

فمن الثابت ان الامراء يهوون الحرب ويخوضون غمارها في ظروف كثيرة ويدفنون مع اسلحتهم وخوذهم وسيوفهم الثقيلة وخناجرهم وحرابهم . وقد أتاحت لنا الرسوم التي بلغت الينا معرفة دروعهم وتروسهم ايضاً ، التي كانت كبيرة الحجم اولاً ، يبدو الانسان فيها وكأنه في احد الابراج ، ثم اصبحت سهلة الاستعمال بعد ان استديرت واستصغرت . وكانوا بين حرب وحرب يواظبون ، بغية الابقاء على قوتهم الجسدية ، على ممارسة القنص . وقد أحاطهم الفن الخاص بهم بمشاهد تنم عن نشاط عنيف قلما نرى لها مثيلاً في الفن الكريتي . وأعمال النهب هي مصدر ذهبهم جزئياً . وكل شيء يدل على ان هؤلاء الهنود الاوروبيين الذين بلغوا جنوبي اليونان ، بعد ألف مغامرة ومغامرة نجهلها ، وبشق طريقهم بين شعوب طال عهد اقامتها في هذه المناطق ، يحتفظون بميولهم الحربية التي اقترنت بميل الى الجمال الشرقي الذي استوحوه من الكريتيين . فالسلطة عندهم تتباهى بالقوّة الفظة ، وتلجأ اليها عند الحاجة .

الارستقراطية والطبقات الكادحة

لم يتيسر كل ذلك إلا على حساب المجتمع . بالرغم من الرغبة الواضحة في التقليد ، أقلّه في معالجة المواضيع التي لا تنطبق على معطيات التاريخ ، فإن الحياة في البلاط اقل بهاء منها في كريت . وتذهب النساء ، في ملابسهن وترتيب شعرهن وحلاهن مذهب نساء كنوسوس ، ويظهر احد الرسوم الجدرانية في ميسين بعض هذه النساء يتبخترن في المسرح عند مقدمة مقصوراتهن . ولكنهن أهملن التمارين الرياضية ، ويرجح ان ذلك قد أثر في قوامهن وحرية سلوكهن الخارجي . ويرجح ايضاً ان الحياة داخل هذه الحصون الضيقة (اقل من ١٥٠م× ٥٠ م في تيرنثوس) ، أي القصور ، لم تشهد احتفالات على درجة عالية من اللطف والاناقة ، وليس من

شك ايضاً في ان الرجـل ، بفضل دوره العسكري ، قد فرض نفسه على الحيـــاة الاجتماعية . ويمكننا ، بالمقارنة مـــع مجتمعات الهنود الاوروبيين المحاربين الاخرى ، وبالاستناد الى بعض الخطوط المستعارة من المجتمعات الهوميروسية ، يمكننا ان نعتقد بوجود جماعات من « الرفاق » تربطهم بالامير صداقة شخصية او مقاسمات أحياناً .

يمكن القول نفسه عن العلائق بين الطبقات الحاكمة والطبقات الكادحة . فالقصور المنتصبة

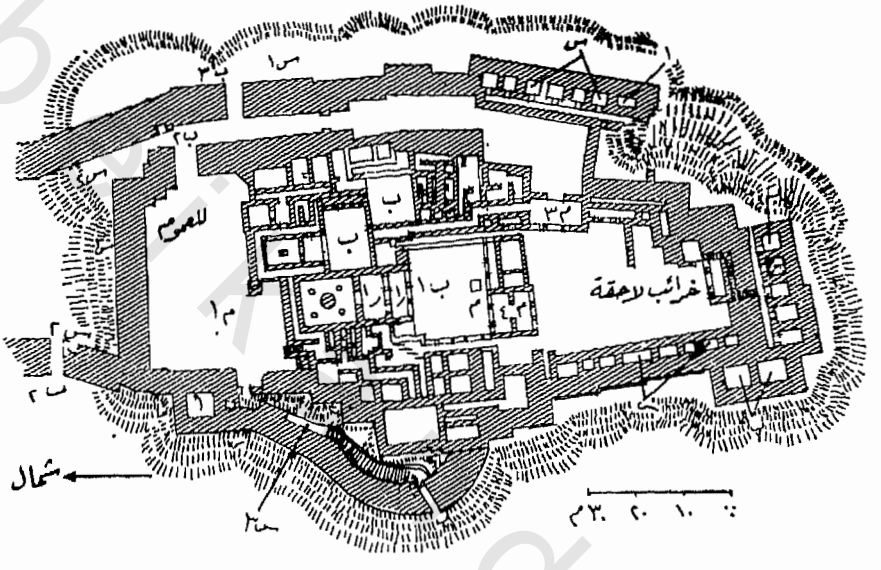

الشكل ١٩ ـ قصر تيرنثوس

م ، مدخل ؛ ب ، بهو ؛ ب١ ، بهو رئيسي ؛ س ، سرداب معقد ؛ ا ، آبار ؛ س١ ، السور العلوي ؛ س٢ ، السور السفلي ؛ س٣ ، سلم ؛ م١ ، الميغارون الرئيسي ؛ م٢ ميغارون النساء ؛ ب٢ ، ابواب ؛ ب٣ ، باب خفي ؛ م٣ ، مدخل كبير ؛ م٤ ، مدخل صغير ؛ ر١ ، ر٢ ، ر٣ ، اروقة تؤدي الى الميغارون .

على المرتفعات أشبه بملاجىء يراقب الاسياد منها عمل مماليكهم في السهل ، لا سيما واننا لا نعلم شيئاً عن العلائق بالسكان السابقين الذين لا يعقل ان يكون الاحتلال قد قضى عليهم قضاء تاماً ، ويستهوينا جداً ان نتصور الباقين على قيد الحياة منهم خاضعين خضوعاً كاملاً للفاتحين . بيد ان الشيء الواحد الثابت هو أن اسواراً خارجية كانت تحيط بالقصور والمدن على السواء . ولكن هذه الاسوار محدودة الطول على العموم (٧٥٠ متراً في تيرنثوس؛ اكثر من ١٢٠٠ متر بقليل في ميسين) ، مما يحدّ من مساحة المدينة . فمن الطبيعي إذن ان يتوزع السكان الباقون في الارياف او ان يقيموا عند لحف المرتفع بحيث يلجأون الى داخل الاسوار طلباً للحماية في ساعات الخطر . وكل ما سوى ذلك فمجرد نظريات .

التجارة والثروة

ويقوم التناقض هنا ، في ان مثل هذه الدويلات ، وهـذا المجتمع قد تعاطت في آن واحد الزراعة والصناعة والتجارة على نحو تعاطيها اياهـــا . أجل ، قد جرى ذلك ببطء ، وعلى غرار كريت التي ما لبثت هذه الدويلات ان حلت محلهـــا ، بعد قرنين من التدرب تقريبـاً . بيد ان نشاطها الاقتصادى قد توسع الى حـــدّ بعيد بعد انهيـار كنوسوس .

فأنشئت الطرقات وربما المرافىء ، ولم يشعر سكان الحصون ، القريبة كلهـــا من الساحل ، بانهم غير قادرين على مراقبة الحياة البحرية وحتى على الاشتراك الفعلي فيها . مارسوا القرصنة أولاً ثم سيطروا على البحر فجعلت الأسفار التجارية محـــل الغزوات الاستلابية . وكانت هذه الاسفار بعيـــدة أحياناً : فاستورد القصدير الغربي بكميات كبيرة بالاضافة الى قصدير القفقاس واستخدم لصنع المزيد من الشبهان ، كما استورد – ولا نعلم بأية واسطة – ندّ البلطيق الذي لم يعرفه الكريتيون والذي قدّر الهنود الاوروبيون حق القدر انعكاسه الشاحب الخفي . وقـد جابت المراكب الميسينية البحار القريبة ايضاً: وتؤيّد المصنوعات المميزة المكتشفة ، بمـا توفره من معلومات ثابتة ، أهمية واتساع انتشار الانتاج المعدني والخزفي . فلما كانوا قد أتوا من الشمال ، حيث المناخ أشدّ قساوة ، فإنهم قد أحضروا معهم المشابك المعدنية (الدبابيس) القمينة بإيثاق ملابس اثقل وزناً . فنقلها عنهم سكان البحر المتوسط . وقد ظهر الكثير من مصنوعاتهم الشبهية وجواهرهم وحجارتهم المنقوشة ، ولا سيما خزفياتهم ذات الرسوم المبسطة التي تشبه الرسوم الهندسية ، في مواقع كثيرة جداً : في صقليا وايطاليـــا الجنوبية والسيكلاد وسواحـل آسيا الصغرى وفينيقيا أخـــيراً حيث غدت لهم « مينة البيضا » ، مرفأ أوغاريت – رأس شمرا ، مستودعاً عارماً بالنشاط يرجح انه كان بمثابة مستعمرة انطلق القصدير منها الى كل مكان حتى بلغ بعض النقاط في وادي الفرات .

غنيمة حرب وقرصنة ، جزية ، صناعة ، تجارة ، كل ذلك أدّى الى الثروة . ولم يعط أي موقع في العالم اليوناني كمية الذهب التي اعطتها ميسين(١٤ كيلوغراماً قبل اكتشافات ١٩٥٢). وحفظ الاغريق ذكرى هذا البذخ ؛ فالقصائد الهوميروسية تنعت ميسين« بالغنية بالذهب»، على انها تقهقرت فيما بعد حتى اصبحت قرية صغيرة في ارض ارغوس . ويجب عملياً انتظار العهـد الهليني ورواج الكنوز الفارسية حتى تدخل البلاد كمية كبيرة من معدن هو اثمن المعادن .

الفن الميسيني

يبدو ان الديانة لا تختلف كثيراً عن ديانـــة كريت . ولكنهم يولون عبادة الاموات اهتماماً اكبر شأناً ، لا سيما ما يتعلق منها بأموات عائلات الامراء.وقد افضى هذا الفرق الى تنمية هندسة مدفنية على قسط كبير من الجدة .

اعتمدت في البدء « المدافن ذات الآبار » الخاصة بميسين التي تحفر بأعداد كبيرة داخـل اطار مستدير من الحجارة المنتصبة ، وقد اكتشفت مجموعة ثانية منها حديثاً .

ثم خلفتها « المدافن ذات الحُجر »حوالي السنة ١٥٠٠ ، واخيراً المدافن ذات القبب . فكانوا يحفرون في منحدر المرتفع سرداباً يؤلف مع المنحدر زاوية مستقيمة ثم ينشئون حفرة مستديرة الشكل يعززون جدرانها بسافات حجرية محكمة الترتيب تضيق تدريجياً حتى تكوّن سقفاً للحفرة . ثم يردمون كل شيء باستثناء السرداب الذي ينتهي الى باب . ويكفي للدلالة على سعة الاعمال المنجزة ، ان نذكر ان السرداب يبلغ حتى ٢٥ متراً طولاً والقبة حتى ١٥ متراً قطراً وارتفاعاً .

في هذه « القفران » ، اي في القبور الجانبية ، توضع الجثث باعداد كبيرة أحياناً . فهل تعني هذه الكثرة ان ضحايا بشرية كانت تقدم اثناء الاحتفال بالجنائز ؟ لا شيء يحول دون الاخذ بهذه النظرية في بعض الحالات . ومهما يكن من الامر ، فإن الميت يستمر في الحياة بعد موته . وقد اكتشف في حفر الذبائح تحت السراديب عظام حيوانات وتقادم للميت . وقد عثر في المدافن ذات الآبار على الاقنعة الذهبية التي تظهر خطوط وجه الميت بما فيه اللحية . كما عثر فيها ايضاً على الاسلحة والجواهر والحلى والسكاكين والمحالق وغيرها من الادوات المختلفة . وفي اواخر القرن التاسع عشر أثارت اكتشافات « شليمان » دهشة العالم بأسره . وقد حصلت بعد ذلك اكتشافات اخرى عرف بعضها الشهرة كاكتشاف الاكواب الذهبية في « فافيو » جنوبي البلوبونيز ، ويستحق بعضها الشهرة كاكتشافات دندرا في الارغوليد التي تعود الى خمس وعشرين سنة تقريباً ، كما قد تبلغ الشهرة ايضاً بعض الاكتشافات الحديثة العهد .

لا شيء في هذه المصوغات يظهر تغييرات جوهرية بالنسبة للفن الكريتي . ويمكن القول نفسه عن الفنون الاخرى لا سيما التصوير الذي ازدانت برسومه جدران القصور . فقد اعيرت بعض المواضيع اهتماماً خاصاً كالحرب — أقله في البداية — والقنص مثلاً . ولكن النزعات الجمالية قد بقيت هي نفسها دون تغير . ولا غرابة هنا اذا ما لاحظنا ان هذه النزعات ما زالت تلهم الفنانين الكريتيين الذين راج انتاجهم في اليونان ، او الذين اتوا الى اليونان للعمل فيها مخيّرين او مسيّرين فدربوا تلامذة بقوا أوفياء لهم .

على نقيض ذلك ، ادخلت على الهندسة المدنية بعض التجديدات التي لا تقل اهمية واثراً عن تلك التي ادخلت على الهندسة المدفنية .

وقد تناولت هذه التجديدات البيت بنوع خاص الذي كيّف وفاقاً لمناخ البلاد . فبينما كان مسطحاً في كريت ، غدا هنا ذا منحدرين تسيل عليه بسرعة مياه امطار اقل ندرة . ثم كان من الممكن في كريت ، حيث البرد أقل شدة ، ان تنتقل العائلات من مسكن الى آخر . وقضت الضرورة هنا باعتماد المسكن الواحد الثابت لا سيما وان السكان قد هبطوا البلاد من مناطق مناخية اخرى وخضعوا لعادات اخرى ايضاً . فنشأ عن ذلك عنصر البيت الأساسي : « الميغارون » الذي ظهر في العالم المتوسطي قبل الأخيين . فاننا نجده في «طروادة الثانية» التي ترقى الى الالف

الثالث ، وفي تسّاليا وبيوسيا في أوائل الألف الثاني. ولعل منشأه شمالي آسيا الصغرى التي انتقل منها الى اوروبا عن طريق شمالي بحر ايجه ، ولكن الميسينيين هم الذين وضعوا له شكله النهائي الثابت وعمموا استعماله وطريقة بنائه ، فظهر في السيكلاد حوالي السنة ١٥٠٠ ، وفي كريت بعد هذا التاريخ .

قوام الميغارون بناء مستطيل . ويقوم امامه في الخارج ، بعد الأعمدة التي يستند اليها قسم ناتىء من السقف ، رواق بمثابة مدخل يلجه النور والهواء ويفصله جدار ذو باب واحد عن قاعة كبرى هي الميغارون نفسه الذي تتوسطه موقدة ثابتة مستديرة. وليس هنالك من مدخنة لتصريف الدخان ، بل كوّة في السقف تستند الى أربعة أعمدة تحيط بالموقدة على الأرض . وبفضل هذه التدفئة يصبح هذا المكان قاعة للابهة تزخرف جدرانها ويستقبل فيها الضيوف . وسيرد في القصائد الهوميروسية ان الولائم تقام فيها ، كما ان «أوليس» سيوتر قوسه ضد الطامعين في الملك في ميغارون قصر ايطاك . ومن وحي الميغارون أيضاً سيشتق المعبد اليوناني .

منذ ذلك الحين اصبح للبيت مركزه ثم انتظمت اقسامه الاخرى كملحقات له . وصدف ذلك في القصور ايضاً التي استلزمت ، بسبب أهميتها ، قاعتين ذات مواقد أو ثلاثاً . ولذلك فهي قد كانت أقل تعقيداً وتشويشاً . ثم خضع البهو الوسطي لقاعدة محددة مع ما تقتضيه من اروقه ومداخل تحف بالأبواب . وان خرائب تيرنثوس ، حتى بدون الاسوار ، خرائب مساكن توحي العظمة والنبل .

ثم ان الذهنية العامة قد تطورت من جهة ثانية . فليس هناك بعد مس جموح إلا في حقل التزيين. وقد بذل الملوك الميسينيون مجهوداً بغية تحقيق الجلال الخارجي الذي اهمله الكريتيون فأثبتوا مرة اخرى انهم لا يأنفون من اظهار قوتهم .

وتحت تأثير هذه الذهنية نفسها ، طاب لهم تنفيذ الأعمال العظيمة التي تبدو وكأنها تفوق الامكانات البشرية . وقد توفق المهندسون في بناء الحصون و « القفران » الى استعمال قدرات حجرية ضخمة جداً . ومهما كان من خرق المحاولة التي استهدفت النقاشة على الحجر والنقاشة الكبيرة — وهذان فنان جهلهما الكريتيون ، ولكنهما عالجا في هذا الحقل موضوعاً كريتياً أيضاً — ومهما كان من قبح وترهل وثقل الوحشين المنقوشين في « باب اللبوءات » في ميسين، فان هنالك جدّة تتصل اتصالاً وثيقاً بنزعة الأخيين الى ضرب من العظمة فيه الكثير من التيه والمجاهاة . وللمرة الاولى نرى ، خارج القارة الأسيوية ومصر ، محاولة لتحقيق مثل هذه التصاميم العظيمة توصلاً الى مقصد ديني وزخرفي في آن واحد . أجل فشل المجهود من الناحية الجمالية ولكنه قد نجح من الناحية التقنية ، اذ ان رفع هذه القدرة والاسكفة التي ترتكز عليها فوق جانبي الباب لم يكن من الامور اليسيرة .

إرث الميسينيين

بالرغم مما انطوت عليه الحضارة الميسينية من قوّة وإقدام في الحروب ، فقد وجدت من هم أكثر قوة منها واقداماً ، أعني الدوريين ، وهم أيضاً من

الاعريق ، الذين سببوا انحطاطها أولاً وزوالها فيما بعد . ولكن هل يمكن ان تزول حضارة ولا تترك للاحقاتها شيئاً سوى آثار مادية ؟

تسلمت الحضارة الميسينية قسطاً كبيراً من الارث الكريتي وعنيت به . كذلك لم يتح كل شيء منها في اعصار الغزوات الحديدة . فان في اللغة اليونانية بعض المفردات التي ليست بسامية ولا بهندو – اوروبية ولعلها تنتسب الى لغة قد تكون هي نفسها اقدم عهداً من اللغة الكريتية. ومهما يكن من أمرها ، فان الكريتيين والميسينيين قد استخدموها . كذلك احتفظت الديانة اليونانية بتأليه مبدأ الخصب وبممارسة الالعاب الرياضية . وانما هم الأخيون الذين أمنوا استمرار كل ذلك وانتقاله الى من بعدهم .

لم يقصر الأخيون أنفسهم على دور الوسطاء في هذا المجال . أجل لا يمكن ان ننسب اليهم كل ما أصبح يونانياً فيما بعد ، اذ يجب الا نغفل القسط الذي أداه كل من العناصر التي ستكون الشعب اليوناني . ولكن ذكرى حربهم ضد طرواده واسفارهم في المتوسط وثرواتهم وأسلحتهم وحلاهم تلهم القصائد الهوميروسية . وقد ذهب البعض الى القول إن هذه القصائد قد تأثرت مباشرة ، من حيث الوزن والمبنى ، بقصائد ميسينية مماثلة ، ولا يخفى ما في ذلك من جرأة ومغالاة . اما نحن فلنكتف بملاحظة على نطاق أوسع. كان الكريتيون قد فتحوا طريقاً معترضة في المتوسط الشرقي فكان ذلك خدمة لبحر ايجه وجزره . فحافظ الميسينيون على هذه الطريق، وكان ذلك هذه المرة خدمة لليونان البرية . ولن يعوز الاغريق طاقة بشرية ومهارة ونشاط كي يستمروا في السيطرة عليها قومياً واستعادة السيادة عليها اقتصادياً . وخلال قرون طويلة سينشطون الى ابقائها مفتوحة وسالكة خدمة لمصالحهم على غرار ما حدث في عهد ملوك ميسين وتيرنثوس .

الفصل الثاني

كنعـــان وســوريـا

ان جوار البحر المتوسط ، وارتفاع سلاسل لبنـان يطبعان بطابع خاص المنطقة التي هي امتداد لصحاري البلاد العربية نحو الغرب : كنعان في الجنوب وسوريا في الشمال . وتشد هـذه المنطقة الى هذه الصحاري صلة دائمة من حيث انها تتعرض لهجمات الارياح المحرقة المفاجئة ومن حيث انها تستهوي البدو الرّحل فبلغتها منهم موجات متعاقبة واقامت في اقسام كبيرة منهـا أحياناً . فإنما هي لهم الارض السعيدة بفضل امطارها وانهارها وينابيعها : الزراعة ممكنة فيها وجبالهـــا مكسوّة بالاشجار . ثم ان الطرقات المختلفة تؤدي اليها وتمر فيها . وهي المسلك الطبيعي الوحيد بين مصر وجميع بلدان الشرق الادنى . اجـل قد يلفظ البحر فجأة القراصنة ورائدي المغامرات ، ولكن هذا البحر نفسه طريق تؤدي الى البلدان المختلفة . وهنالك اخيراً طرق القوافل التي تصلها بأسفل الفرات وبلاد ما بين النهرين . فهي بلاد صغيرة اذن لا حدود طبيعية لها ولا وحدة فيها ولا ادارة مركزية تجمعها ، ومفترق مستطيل قسمته طبيعة الارض الى طرائد طويلة تتجه من الشمال الى الجنوب . وهي الى ذلك مفتوحة أمام كل سيطرة وتأثير ، طمعت فيها كل الامبراطوريات العظيمة والجماعات البشرية التائهة التي رغبت في ان تقتطـع فيها لنفسها مكاناً .

بيد ان هذه الجماعات قد برهنت في ضعفها عن انهـــا اكثر تصلباً من جيوش الفاتحين المتعاقبين الذين خلدوا مرورهم بكتابات على درجة كبيرة من التصلف فطبعت تاريخ البـــلاد بطابعها الخاص . وباستثناء الفلسطيين ، كانت هذه الجماعات كلها سامية ، مع انهـا انتسبت في الحقيقة الى اصول سامية متنوعة دخلت البلاد في عهود مختلفة . وبالرغم من تنوعها هذا ، فانها قد مارست ، أقلّه في البداية ، الديانة الكنعانية الشديدة التأثر بالطبيعة والزراعـة . ولكنها سلكت في تطورها طرقاً متباينة وكوّنت فسيفسة معقدة . لذلك لن يستوقفنا منها سوى بعض جماعات كان لها اثرها في تطور الحضارة القديمة اللاحق .

١ – الفينيقيون

الفينيقيون ساميون استقروا في السواحل . ونراهم منذ زمن مبكر في الساحل الجنوبي الذي يتقدمون منه ، فيما بعد ، نحو الشمال . ومنذ اواخر الألف الثالث كأبعد حدّ نراهم في اوغاريت (رأس شمرا الحالية مع مرفأ مينة البيضا) ، قبالة رأس قبرص الشرقي . ولكنهم لن يتوغلوا الى ابعد منها نحو الشمال . وعلى نقيض ذلك ، فإن الساحل الجنوبي الذي كان ساحلهم قد أفلت من ايديهم وانتقل الى سيطرة العبرانيين والفلسطينيين . ولم يحتفظوا إلا برقعة ضيقة من الارض جنوبي الكرمل . اما نحو الداخل فيبدو ان توسعهم كان محدوداً ولم يبلغوا جبل لبنان الشرقي الا في نقاط نادرة . بيد انهم توفقوا الى الاحتفاظ بعلائق طيبة بالسوريين .

الحياة السياسية

طوال الألف الثالث ومعظم الألف الثاني، توطدت علائقهم بمصر بنوع أخص، وكان مركزها بيبلوس ، وهو الاسم اليوناني لجبلة الفينيقية وجبيل الحالية . ولكن أسياد بلاد ما بين النهرين ، من جهتهم ، بسطوا نفوذهم على اوغاريت . ولم يتح للمدن الفينيقية ان تتمتع بالاستقلال إلا بعد انهيار الامبراطوريتين العظيمتين المصرية والحثية في اواخر القرن الثالث عشر. ولكن هذا الاستقلال كان قصير الامد اذ خضعوا فيما بعد على التوالي للسيطرة الاشورية والبابلية الجديدة والفارسية قبل ان يدخلوا في فلك اليونانيين والرومان من بعدهم . بيد ان هذه الطريدة الساحلية الضيقة لم توفر الارض الكافية لتشييد دولة كبيرة ، بل كانت تحت رحمة الامبراطوريات القوية بسبب ضعف دفاع حدودها البرية .

ولم يكتب لهذه الطريدة ان تتوحد بسبب امتدادها الى اكثر من ثلاثمائة كيلومتر وصعوبة مواصلاتها البرية التي تعترضها وديان ومرتفعات كونتها السيول الجحافة المنحدرة عرضياً من الجبل الى الساحل . لذلك توزع السكان فيها على عدد من المدن احتل كل منها موقعاً مؤاتياً للنشاط البحري : جزيرة صغيرة قريبة من الشاطىء أو أرض داخلة في البحر . ولم يجمع بينها اتحاد أو تحالف بل تآكلها التحاسد والتنافس اللذان قاداها الى التحارب احياناً . فتناصبت صور وصيدا بنوع خاص عداءً طويل الامد . ولم يتح لمدينة واحدة ، حتى ولو استفادت مما ألحقه الاجنبي بمنافساتها ، ان تبسط نفوذاً واسعاً أو دائماً . ولكن ما يلفت النظر هو ان المدن الفينيقية ، على نقيض المدن اليونانية ، لم تنهك قواها في هذه المنازعات . ويبدو ان الاسياد الغرباء الذين بسطوا عليها حمايتهم قد فرضوا عليهم الاخلاد الى السكينة . ولعلها ايضاً قد انشغلت بمصالح اخرى واستهوتها الآفاق الواسعة فلم تنجرف في تيار الخلافات المحلية . والجراح البالغة التي اصيبت بها صور وصيدا ، فسببت هبوطها ، انما هي نتيجة ضربات عدوّ خارجي لا انقسامات داخلية .

لا نعلم الشيء الكثير عن تنظيم هذه المدن وعن الحياة فيها . ونحن نرجح ان هذا التنظيم وهذه الحياة قد اختلفا من مدينة الى مدينة ومن عهد الى عهد في تاريخها الطويل . وليس من سبيل الى المقارنة بين مفهوم المدينة عند الاغريق والمفهوم نفسه عند الفينيقيين . ولم تحل بعض الفوارق الطفيفة دون سهولة تطور المدن الفينيقية ، بعد فتح الاسكندر ، الى مدن من الطراز

اليوناني ، على نقيض بعض المدن الآسيوية الاخرى . لذلك يتوجب علينـــا الاقتصار على بعض الانظمة الثابتة . فيمكن الجزم ، بنوع من الشمول ، ان المدينة الفينيقية قد خضعت دائماً لملك

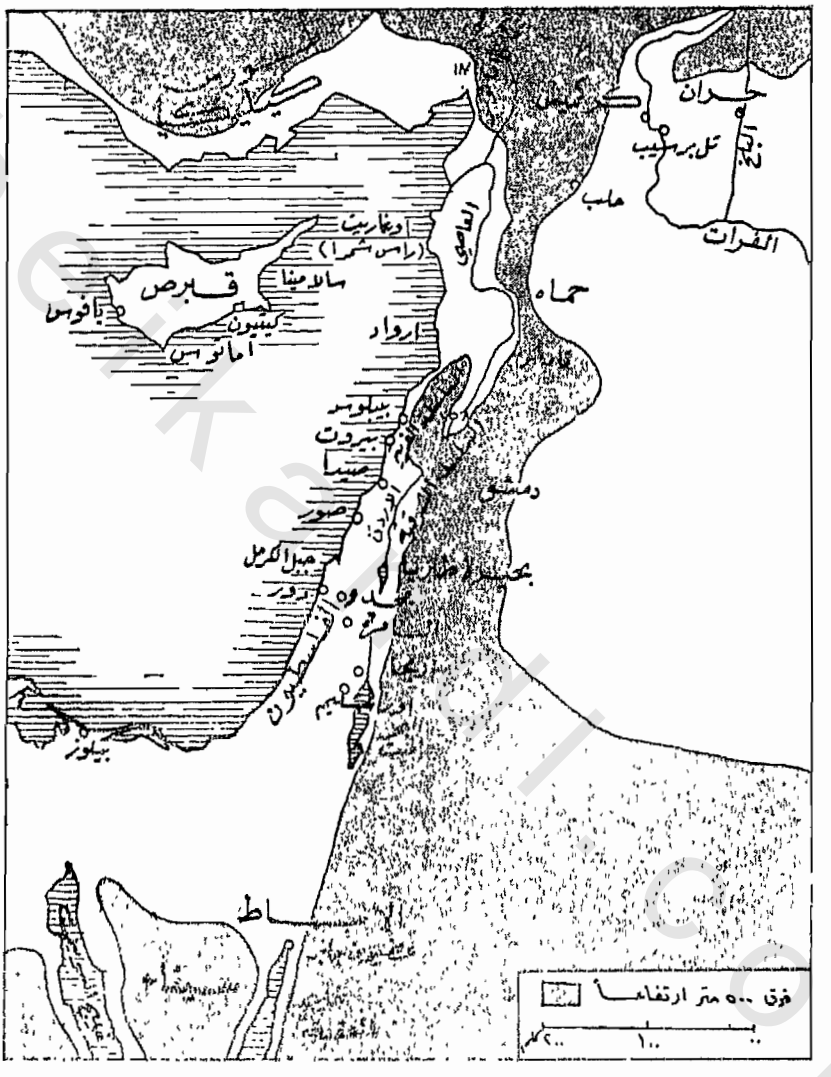

الشكل ٢٠ ـ كنعان وسوريا

يرأسها، وتنتقل الملكية عادة الى ذريته من بعده. والملك يتمتع احيانـــاً بسلطة مطلقة ، كما هي حال حيرام في صور في عهد سليمان ، ولكن عليه نظرياً وعملياً في اغلب الاحيان ان يحسب

حساباً لقوى اخرى . فكاهن إله المدينة الرئيسي ينعم بنفوذ واسع يحدث أحياناً ان يستخدمه لاغتصاب الملك . وقد ثبت خصوصاً استمرار وجود مجلس من « القدماء » والقضاة ، كما درجت على ذلك صور مثلاً حيث تمثل القضاة بشخصين هما « الصافطان » . ويشترك في هذه الاجهزة ممثلون عن طبقة الاغنياء دونما تمييز بين اصحاب الاملاك واصحاب المراكب ، مما يبرهن ان للعائلات الكبرى مصالحها المشتركة . أما الشعب ، حتى ولو قام مجلس يمثله ، فلا كيان له إلا في ظروف البلبلة والفوضى ، إذ يلجأ إليه الزعماء المتنافسون والأحزاب المتناهضة . ولكن هذه الجمهوريات الملكية الارستوقراطية النزعة تمثل ، بالرغم من ذلك ، الى حانب الملكيات الشرقية الكبرى ، شكلاً مبتكراً في التنظيم السياسي .

الحياة الاقتصادية

ولعل حياتهم الاقتصادية اكثر ابتكاراً ايضاً. فالزراعة ليست مهملة . وهنالك على منحدرات الجبال جلول منضدة هي ثمرة عمل شاق طويل . ويسدّ محصول الحبوب القسم الاكبر من حاجات السكان الغذائية، وتربية المواشي بعض حاجاتهم من المنسوجات ، كما يصدّر ما يفيض عن حاجتهم من خمر وزيت .

الصناعات المهنية ناشطة جداً في المدن . وقد قصد الصيادون شواطىء نائية جداً فبلغوا افريقيا سعياً وراء طلب أصداف « المورکس» التي يستخرج منها الارجوان، مما أتاح للفينيقيين، زمناً طويلاً ، التفرد تقريباً بصناعة الاقمشة الصوفية الملونة . ولم تواجه خزفياتهم منافسة تذكر في الفترة التي تفصل بين هبوط الميسينيين واتساع حركة التصدير فى كورنثوس . وقد اكتشفوا أو اكملوا افضل التقنيات لصناعة ادوات الترف والجواهر والزجاجيات والطيوب والمفروشات المنزلة معدناً أو عاجاً . وفي هذا الحقل ، حتى في العهد الروماني ، سنراهم يتنازعون الأولوية مع الاسكندرية .

ثم ان بحثهم عن المواد الخام وعن الأسواق لبيع سلعهم قد دفع بتجارتهم دفعاً الى الامام . فتعاطوها منذ عهد سحيق ؛ قائمين ، بالاضافة الى مقتضيات ضروریاتهم الخاصة ، بدور السماسرة ، فجنوا الارباح من سلع غيرهم ايضاً التي أخذوا على انفسهم امر تصريفها : هكذا سلك الجبيليون مع مصر منذ الألف الثالث ، وهكذا غدت أوغاريت في الألف الثاني مستودعاً حقيقياً للعالم الايجي . أما في البر فلم يتولوا بأنفسهم نقل البضائع بواسطة القوافل ، ولكنهم أقاموا حيث تؤدي طرقات هذه القوافل وحرصوا على ان تقوم أحسن العلائق بينهم وبين السوريين والعبرانيين. وإنما انقطعوا الى التجارة البحرية مستفيدين من موقع مرافئهم ومستثمرين الموارد التي توفرها احراج لبنان لبناء مراكبهم . كان سكان بلاد ما بين النهرين قد اكتشفوا الأصول القانونية والمالية للتجارة البرية ، بينما نحن لا نملك قوانين ولا عقوداً فينيقية ، ولكننا أكيدون من انها قد وجدت واعتمدت في التجارة البحرية أصولاً مماثلة. وعلى كل حال فإن الفينيقيين قد برزوا في تقنية الملاحة التي تفوقت على كل تقنية اخرى ما بين القرن الثاني عشر وأواخر

القرن الثامن . وقام بعض ملاحيهم ممن كانوا في خدمة فخاوو ، أحد فراعنة سايس ، « بجولة » حول افريقيا مروراً بالبحر الأحمر وجبل طارق استغرقت ثلاث سنوات . وسلكوا بجرأة ، لحسابهم الخاص ، طرقاً غير مطروقة مندفعين بعيداً نحو الغرب ومكتشفين مصابّ الانهر والمواقع الصالحة للجوء المراكب وللدنوّ من الشاطىء ومستطلعين ، بتوقفهم الاضطراري كل مساء ، شواطىء مجهولة ، حرصوا على الاحتفاظ بأسرارها . وقد نشطوا في كل مكان الى إقصاء كل من تسوّل له نفسه منافستهم ، لاجئين الى القوّة حين يرون للقوة سبيلاً ، مستعدين لكل مقايضة ، مقدمين على الاستلاب احياناً ومعرضين انفسهم لسطو المستلبين احياناً اخرى . فقد اتجروا ، بالاضافة الى ما اتجروا به ، بالارقاء من رجال ونساء واطفال باعهم اسيادهم أو هم خطفوهم بالحيلة أو بالقوة . أما ما جاء في ملحمة « أوليس » عن خطف راعي الخنازير البافع ، « اوميوس » ، بينما كان ذووه يتباحثون مع احدالتجار الفينيقيين في ثمن عقدمن الذهب والندّ ، فيبدو ان الخطأ فيه مشترك بين الطرفين اذ ان الامة الصيدونية المسؤولة عنالخطف قد خطفت هي ايضاً على أيدي قراصنة من الاغريق . ولكن الفينيقيين قد عرفوا تمام المعرفة ان الاتفاق الجبي مع اهالي البلدان الغريبة اولى .

الاستعمار

وقد توصلوا في اكثر الاحيان الى تحقيق هذا الاتفاق وتمكنوا من تحويل الاسا كل المبتدهة الى اسواق تجارية دائمة ما لبثت ، بفضل ظروف محلية مؤاتية ، ان اصبحت مدناً جديدة احياناً . بيد انهم قد صادفوا مقاومة جدية من قبل الاغريق الذين لم يسمحوا بأن يمس حرمهم الايجي ، بل هم أنفسهم خرجوا منه لتأسيس اسواق خاصة بهم . فقُسّمت قبرص فيما بينهم على ان الفينيقيين قد حصلوا منها على الشطر الاكبر : فكان لصيدون فيها ، في القرن الثامن ، « قرط حدثت » أو قرطاجة ، أي « مدينة جديدة » . وقد وجب التوافق في صقلية ايضاً . ولكن الفينيقيين لم يواجهوا منافسة ما في سردينيا ولا في شبه الجزيرة الايبيرية ولا في افريقيا الشمالية . ولكن ذلك لم يفض الى قيام امبراطورية بمفهومها المعروف ، بل الى سلسلة من المستعمرات الفينيقية ، قد تتقارب حلقاتها او تتباعد ، ينتظر احداها ، قرطاجة الصورية في افريقيا ، مستقبل باهر جداً . وقد نشرت هذه المستعمرات احياناً الحضارة الفينيقية في اوساط على كثير من التخلف والتأخر .

يتناقص عدد هذه الاسواق وتشتتها تناقصاً كلياً وضيق بلاد مؤسسيها الأم . وهذا دليل على كثافة سكان هذه البلاد حتى ولو سلمنا بالتحاق مهاجرين جدد من هنا وهناك بالنازحين المؤسسين . وهذا ما يعلّل ايضاً امتناع المدن الفينيقية عن التوسع في آسيا وربما عدم نشوب أزمات سياسية واجتماعية خطيرة في تاريخها الداخلي . ولكن هذا النشاط قدأدى الخدمات الجلّى للعالم الشرقي القديم . فقد أسهمت التجارة الفينيقية ، بفضل انتشارها في الغرب المتوسطي وبفضل اسواقها التجارية في شرقي اسبانيا وفي قادش بعد مضيق جبل

طارق ، في تموين الشرق بالمعادن النادرة لا سيما القصدير المستخرج من الجزر الكسيتيرية . وهكذا فإن هذه المدن الصغيرة القائمة على شاطىء صخري قـد وفرت للأمبراطوريات العظمى بعض المواد اللازمة لتشييد حضاراتها .

الديانة والفن

ويا لدهشتنا ، استناداً الى ما سبق ، عندمـا نرى ان الفينيقيين قد مارسوا ، في جوهر معتقداتهم ، ديانة تتسم بطابـع زراعي مميز فيما يتعلق بآلهتها وخرافاتهـا وطقوسها ، مما يثبت انهم تعاطوا الزراعة دون غيرها قبل ان يصبحوا تجاراً وملاحين .

اطلقوا على إلههم الرئيسي اسم العلم « ايل *El* » الذي ليس سوى اسم نكرة معناه « إله » . وقد رأوا فيه خالق كل شيء وسيّد الآلهة . ويأتي بعده بعل (السيد) وهو يمثل « حدد » المقتبس عن سوريا الشمالية اثنـــاء الاستيطان وكان إله الصاعقة والرعد والمطر . اما ابنه « أليان بعل » فيمثل الآبار وينابيـع المياه الجوفية . وكان « داغون » إله القمح و « مُوت *Mot* » إله الحصاد ونضج الاثمار . وغدت « عشترت » إلهة الخصب وهي لا تختلف عن عشتار بلاد ما بـــين النهرين كما يتضح من اسمهـــا . وهنالك مجموعة آلهة آخرين كثيرين طرأ بعض التطور على نظرة الناس الى جوهرهم وتنسيقهم . فاستقر ملقرط (ملك المدينة) في صور ، وجمع ادونيس (سيدي) اليه « اليان » و « موت » . ولا ذكر لهؤلاء الآلهة في نصوص اوغاريت – رأس شمرا ، ولكننـــا نجد ، في الاساطير التي ترويها هذه النصوص ، الخطوط المميزة الدائمة . منذ القرن الخامس عشر قبل المسيح ، مُوت واليان يموتان مناوبة ثم يقومان كما سيفعل « ادونيس » في اعيـاد جبيل التي وصفها « لوقيانوس » في القرن الثاني للميلاد . وكذلك نرى ان العـالم الفينيقي قد مارس طقوساً لازمته زمناً طويلاً بموجباتها الاصلية . فقد اثبتت اعمال التنقيب ما جاء على لسان المؤرخين الاغريق ، اذ ان القرطاجيين قد قدموا في عهد متأخر ضحايا بشرية من الاطفال لأيل الذي عرف عندهم « ببعل هامون » . ولعل اسم هـــذه الذبيحة (مُلْق) هو الذي حدا بالعبرانيين لأن ينسبوا للفينيقيين إلهاً اسمه مولوخ .

تمكنا من معرفة الفن الفينيقي عـــن طريق المدافن التي يثبت قدمها وغناها اهمية عبادة الاموات . ولكنه ليس بالفن المبتكر ، لا بل انه يكشف عن الاثر البعيد الهـــام الذي اضفته عليه فنون اجنبية عدة ، وهو حين يؤلف بينها لا يتوفق الى تحقيق صهرها . المدافن في اوغاريت معقدة ويتقدمهـــا سرداب على الطراز الميسيني . ويمثل ناووس الملك احيرام في جبيل ، تحت افريز من البردي ، الميت مرتدياً ثياباً مصرية وجالساً على عرش بجانبه تمثالان لابي الهول ، امام منضدة للتقادم مصرية ايضاً . اما في صيدون ، فان بعض نواويس القرن الرابع على الاقل التي قد صممت على شكل معابد يونانية صغيرة ، هي دون ريب من صنع النقاشين الاغريق ، كناووس « الباكيات » مثلاً الذي سبق وعولج موضوعه ، بكثير من الخرق ، على ناووس احيرام ، ولعله موضوع فينيقي صرف . ولكن أجمل وأثمن الادوات الموضوعة في المدافن مصدرهـا اجنبي ،

وهو ، في جبيل كما في اوغاريت ، مصر والعالم الايجي . وقد زودها هذا الاخير بنوع خاص بعاجيات تلفت الانظار . ففي هذا النطاق ايضاً جمع الفينيقيون ثرواتهم من التجارة الخارجية .

الأبجدية

بيد ان لهم فضلاً خاصاً في تحقيق اكتشاف على جانب كبير جداً من الاهمية هو اكتشاف الابجدية . لقد سبق ورأينا ان المصريين ، وربما سكان ما بين النهرين ، قد اعطوا بعض رموزهم قيمة حرف صحيح ، وتمكنوا بالتالي من تحليل الاصوات الاوليّة . ولكن هذه الرموز قد احتفظت في الوقت نفسه بقيم اخرى كما ان رموزاً اخرى كثيرة ، لا سيما المقطعية منها ، قد استمر استعمالها في آن واحد بقيم مختلفة . ويبدو اليوم ان الخطوة الفاصلة قد خطاها الفينيقيون . فالنصوص الدينية في اوغاريت – رأس شمرا التي ترتقي الى القرن الخامس عشر قد كتبت انطلاقاً من ثلاثين رمزاً مسمارياً فقط يمثل كل منها حرفاً صحيحاً . وكانت هذه الرموز معقدة جداً وصالحة للكتابة على الغرين فقط . ويرجّح ان النجاح الاخير قد احرز بعد ذلك بقليل وكان مكتملاً عندما اودعت جثة احيرام ناووسه في جبيل : فقد استخدم في الكتابة المحفورة على غطائه اثنان وعشرون رمزاً اصطلاحياً تقابل اثنين وعشرين حرفاً صحيحاً . فمتى عاش احيرام يا ترى ؟ هناك آنية من حجر الشطوط تحمل اسم رعمسيس الثاني وضعت على مقربة من الناووس مما يحملنا على الترجيح انها معاصرة للقبر تقريبا . فلا يرتقي هذا القبر والحالة هذه الى ما بعد آخر القرن الثالث عشر . وهل اشتقت هذه الرموز من اسلوب كتابي غريب ؟ كل ما تحققنا منه هو انها لا ترد الى تبسيط الرموز الهيروغليفية او المسمارية . ولكن هذا يهيب بنا الى الاعتقاد بان الفينيقيين قد ابتدعوها بمعزل عن أي تأثير . ويتضح بالتالي ان التقليد اليوناني الذي نسب اليهم اكتشاف الابجدية قد صادف تأييداً ركيناً بالاكتشاف الذي طلعت علينا به جبيل .

ويستدل من مقارنة الرموز ان ابجدية ناووس احيرام كانت مصدر الابجديات المعتمدة في كتابة لغات الشعوب السامية والمجاورة : الأرامية والعبرانية . ثم استوحاها الاغريق بدورهم مضيفين بعض العلامات النافلة او الجديدة الى اشكال حروف ابجديتهم الخاصة ، لا سيما حروف العلة منها . وما الاسماء التي اطلقوها على هذه الحروف سوى اسماء سامية كألفا التي تأتي من ألِف مثلاً ، وغيرها ... ثم نقل كل العالم المتوسطي الابجدية عن الاغريق .

دور الحضارة الفينيقية التاريخي

فلا خوف اذن من المغالاة في اطراء اهمية هذا الاسهام يحققه الفينيقيون في الحضارات القديمة . وان لهم عليها افضالاً اخرى أتاح العرض السابق تقديرها وتوقعها : استكمال التقنيات البحرية التي لا نعرفها تماماً على كل حال؛ استكشاف شواطىء المتوسط الغربي ؛ تنظيم المقايضات فيما بين المناطق والحضارات النائية . واذا اعوزهم النقد الذي لم يظهر في مدنهم قبل العهد الفارسي ، فانهم حريصون على ان يكتفي البحارة التجار ، في تعاملهم والشعوب المتخلفة ، بالمقايضة دون صعوبة . وقد استمرت اهمية

دورهم الاقتصادي، حتى بعد ان دخلوا في فلك الامبراطورية المقدونية والامبراطورية الرومانية من بعدها ، وحتى بعد ان اشتركت البلدان الغربية اشتراكاً مباشراً في الحضارة العامة . وقد حافظت صناعتهم الزخرفية على نشاطها الواسع ، وقد انتشر تجـــارهم الذين لم يميز بينهم وبين « السوريين » في كافة انحاء العالم الروماني ، وأسهموا في اشاعة بعض العبادات الشرقية فيه . بيد ان انطلاق هذه الاشاعة يعود الى عهد مبكر جداً اذ قد مهّد لها الطريق وجود البحـارة الفينيقيين في كل المرافىء . ففي السنة ٤١٥ قبل الميلاد ، احتفل بعيد ادونيس في البيره بحضور جماهير شعبية عفـــيرة ، وكانت النساء تتحسرن على موت الاله الذي لن يلبث ان يقوم ، حين اقلع الاسطول العظيم شطر صقليا حاملاً معه آمال اثينا والقيبيادس .

٢ – الأراميون

وراء الطريدة الفينيقية الساحلية ، تقوم سوريا التي هي ملتقى طرق وملتقى شعوب ايضاً . فقد استوطنتها شعوب عدة وتناوبت السيطرة عليهـــا تاركة فيها عنصريات مختلفة القوميات انصهرت رويداً رويداً في كل متجانس وتاركة ايضاً بقايا أثرية يحاول المعاصرون تنسيقهـا . ولنقتصر بين هـــذه الشعوب على الاراميين دون غيرهم ، اذ ان حضارتهم تنطوي ، في بعض مظاهرها ، على اهمية راهنة .

الحياة السياسية

الأراميون أيضاً ساميون جاؤوا من احدى مناطق الصحراء السورية العربية . كانوا في البدء بدواً رحلاً منتظمين قبـــائل ، هاموا على وجههم حتى بلغوا الاصقاع العليا من بلاد ما بين النهرين حيث نجدهم ، على بعض الكثافة ، مستقرين في حرّان اولاً . وقد جـــاء في سفر التكوين ان يعقوب قد اقام طيلة عشرين سنة عند لابان على بعض المسافة من هـــذه المدينة . ثم هاجروا ، ابتداء من القرن الرابع عشر قبل الميلاد ، الى سوريا حيث أسسوا مستعمرات حضرية . بيد انهم لم يقدموا يومـاً على طرد قدامى السكان كليّاً ، ولم يتوصلوا الى غمرهم عدداً ، كما انهم لم يؤسسوا يوماً دولة واحدة ، بل ممالك متعددة قد تتحارب احياناً . ولعل أهم ممالكهم تلك التي قامت في واحة دمشق الكبرى عند لحف جبل لبنان الشرقي ، وهي مملكة اسرة «بن حدد» (ابن حدد) ومملكة هازائيل (ايل ينظر) .وباستطاعتنا ان نذكر ، الى جانب مملكة حران ، ممالك اخرى كثيرة : في حلب ، وحماة على العـــاصي ، وزنجرلي عند لحف امانوس ، وغيرهـا ..؛ وتعدد التوراة ثلاثة وثلاثين ملكاً حليفاً في القسم الثاني من القرن التاسع . ويمكن القول انهم بلغوا اوج الازدهار في القرنين الحادي عشر والعاشر اذ سدّوا الطريق امـــام الاشوريين نحو الغرب والشمال الغربي . غير ان الملوك الاشوريين منذ اواخر القرن العاشر ، عندوا في تسديدهم الضربات يوم كانت لهم منازعات مع العبرانيين . وفي اواخر القرن الثامن تم القضـــاء على استقلالهم ، فخضعوا باستمرار بعد ذلك التاريخ الى الدول الاجنبية .

كان لكل مملكة أرامية عاصمتها وملكها وسلالتها ومغتصبوها ايضاً . وقد فرض الاشوريون الجزية والتقادم على هذه او تلك من الممالك محاولين حمل الملك على القبول بدور صاحب الاخاذة والموظف في آن واحد . ولكن هذا الملك كان يهب عند أول سانحة ، لاستعادة استقلاله . وجلي ان لا جديد غير عادي في كل ذلك . بيد انه يجدر بنا ان نذكر الكتابة التي يمجد فيها أحد ملوك زنجرلي احسانات سياسته الداخلية ، بعد انتصاراته الخارجية : « كان « المشكب » يطوفون كالكلاب . أما أنا فقد كنت لهذا أباً ، ولذاك أماً ، ولذلك أخاً . وذاك الذي لم ير في حياته رأس خروف ، جعلته يملك قطيعاً من الماشية الصغيرة . وذلك الذي لم ير في حياته رأس ثور ، جعلته يملك قطيعاً من الماشية الكبيرة ويملك الفضة والذهب . أما الذي لم ير القميص منذ حداثة سنه ، فقد أُلبس الخز في ايامي . أنا امسكت بأيدي المشكب الذين كيفوا نفسهم كما يكيف اليتيم نفسه حيال امه . فاذا ما جلس احد اولادي على العرش بعدي وأقدم على اتلاف هذه الكتابة ، فليضن المشكب باحترام البارير وليضن البارير باحترام المشكب » . وانما المهم في هذا النص ، ذكر المشكب ، وهم بلا ريب عمال زراعيون ، وربما فداديون ، حسّن الملك وضعهم تحقيقاً للالفة بينهم وبين البارير ، «القساة» ، أي العتاة أو الاشراف . وقد يكون لهذه الفكرة سابقاتها في الحضارات الشرقية الاخرى . ولكن قوة التعبير فيها تبدو حدثاً جديداً . ومن سوء الحظ ان ليس من نص حتى الآن يلقي ضوءاً آخر على الحياة الداخلية في هذه الدول الصغيرة .

الدور التجاري

أما دورها التجاري فأقل غموضاً . فالموقع الجغرافي لسوريا وشمالي بلاد ما بين النهرين ، الذي جعل منهما طريقاً طبيعية للتجارة بين الساحل الفينيقي وآسيا الصغرى من جهة وبين مناطق اسفل الفرات ودجلة من جهة اخرى ، قد سمح لهما ، كوسطاء ، باظهار المزيد من النشاط الواسع . فقاموا براً في بعض اقطار الشرق الادنى بما قام به الفينيقيون بحراً . وما لبثت الصناعة والتجارة في سوريا ان طبقت اصولاً تقنية افضل فنالت شهرة كبرى وأسهمت في ثروة دمشق . ولكن القوافل كانت قد تقاطرت على هذه المدينة منذ قبل الفتح المقدوني . ثم ان تنقلات الاراميين قبل اقامتهم الحضرية المستقرة ، واقدام الملوك الاشوريين مراراً على نفيهم ، وهجرة تجارهم الطوعية الى الامبراطوريات الواسعة الارجاء التي انخرطوا في عداد رعاياها ، كل هذه الاسباب قد أفضت الى احلال جماعات ، كبيرة أو صغيرة ، ممن يتعاطون التجارة ، في مدن عديدة نائية جداً في بعض الاحيان . وقد استفادوا من هذا الوجود المتزايد في كل مكان ، حتى في عهد السيطرة اليونانية ، وسيصبحون ، في ايام الامبراطورية الرومانية ، التجار في كل امصار العالم القديم تقريباً .

الأرامية لغة الشرق

وكانت اولى نتائج ذلك انتشار لغتهم التي انصهرت لهجاتها المتعددة في لغة أرامية عامة . وهم لم يكتبوها بحروف مسمارية ، بل طبقوا عليها ابجدية مشتقة من الابجدية الفينيقية . فحملت سهولة استعمالها الملوك الاشوريين على استخدام

obeikandl.com

يوم من الايام ، المناطق الشاسعة التي شملها حينذاك . ولعل مرد تأثيرهم هو في الاصل فقدان استقلالهم السياسي حين قمع سرجون الثاني الانتفاضات الثورية الاخيرة في حماة ودمشق . وفي التاريخ اكثر من مثل على هذا التناقض الظاهر .

٣ — العبرانيون

ان هذا الشعب السامي الذي عاش زمنا طويلا حياة البدو الرحل، المتشردين احيانا، والذي تعنى واستوطن فلسطين نهائيا ، بعد خروجه من مصر ، في اواسط الالف الثاني قبل المسيح قد عرف مصيرا خارقا غريبـــا . وهذا المصير ليس خارقا بمجد ذاته ، اقله حتى منازعاته مع الملوك المقدونيين الاخيرين ومع روما ، فان شعوبا شرقية صغيرة اخرى قد اصابها ما اصابه من تقلبات الدهر المماثلة ، وانما الفارق الكبير الوحيد هو اننا اكثر معرفة باحوال الدهر فيه منها في سواه ، ثم ليس تاريخه كتاريخ ، ما يجب ان يستوقفنا هنا . لكن مصيره الخارق قائم في غرابة تطوره الديني والاخلاقي وفي اتساع وعظمة دوره في تاريخ البشرية الروحي .

أ — التقلبات الزمنية

القضـــاة

يكفي اذن ان نرسم بسرعة الخط البياني المنحني لتنظيمه السياسي ولنشاطه المادي، اذ ان الاشكال التي تلبّسها لم تبق دون نتائج في النفوس.

فرضت الحياة البدوية على العبرانيين نظام القبائل الجماعي . ثم فرض عليهم الصراعُ ، بغية احتلال ارض الكنعانيين ، والمنازعات مع الفلسطيين بنوع خاص، تنظيماً آخر جانبَ ظهور الروح القومية وسيرَها في مدراج التقدم : فالحرب تتطلب رؤساء يستطيعون جمع الحد الاقصى من طاقات العمل والنشاط في مجهود مشترك.

كان الرؤساء الاول « القضاة»، وهو الاسم الذي اطلق على القضاة المدنيين في المدن الفينيقية. وقد تسربت الاسطورة الى التقليد الذي تكوّن حولهم . ولكننـا نلمس فيهم ، دون عناء ، رجالا تلهبهم الاخطار ويتمتعون ، بفضل صفاتهم الشخصية ، بنفوذ رفيع عسكري وسياسي وديني معا . وقد اعتبرهم الناس اقرب الى الالوهية من باقي البشر، مما اركن سلطتهم على اساس وطيد . ولكن هذه السلطة افتقرت الى ادارة منظمة واكتفت بالاساليب البدائية . « وقضى صموئيل لاسرائيل كل ايام حياته . وكان يذهب من سنة الى سنة ويدور في بيت إيل والجلجال والمصفاة ويقضي لاسرائيل في جميع هذه المواضع . وكان رجوعه الى الرامة ، لان بيته هناك ، وهناك قضى لاسرائيل » . اما شاوول ، فكان يشاور مع معاونيه« جالساً تحت الاثلة في جبعة فوق المرتفع »، رمحه في يده وجميع عبيده وقوف لديه .

الملكية الاتحادية

ومـــا لبث شاوول ان ملح اللقب الملكي في اواخر القرن الحادي عشر ، على الرغم من المعارضة التي صادفها هذا الحدث . ولكن الملكية لم تصبح اتحادية حقاً الا في ايام منافسه وخلفه داوود الذي حدّد لها اورشليم مركزاً . ثم سلمها لابنه سليمان الذي عرفت في ايامه ، في اواسط القرن العاشر ، ازدهاراً باهراً حقيقياً .

ولكنها لم تتميز باي تفرد خاص في تنظيمها السياسي والاداري ، اذ كان من المحتم عليها ، حتى في نطاق شعب صغير ، ان تستوحي المُثُل الشرقية العظمى . وكان داوود يحسب حساباً للقبائل والمدن التي كانت لها بمثابة عواصم صغيرة . اجل انه جنّد مجلساً من الموظفين مع رئيس كتبة ومسؤول عن اعمال السخرة وقوّاد وحرس ومرتزقة ، ولكنـــه كان يستدعي مندوبي القبائل ايضاً التي يلجأ اليها عند تعبئة الجيش . واحرز النظام المركزي تقدماً كبيراً في عهـــد سليمان ، وازداد عدد موظفي البلاط الذين يعملون الى جانب الملك في ادارة المملكة . وقسمت البلاد الى اثنتي عشرة مقاطعة اسند امر ادارة كل منها الى « وكيل » وفرض على كل منها تأمين المواد الغذائية للقصر الملكي طيلة شهر كامل . ونظمت اعمال السخرة وثقلت وطأتها ، ممـا اثار شكاوى الشعب المريرة الحادة. وان الفارق الاساسي الوحيد الذي ميزها عن الملكيات المجاورة، لا سيما مصر وبلاد ما بين النهرين اللتين كانتا لسليمان مثله الاعلى ، كان في الحقيقة فارقاً دينياً . فلم يكن الملك يوماً من الايام ابن الاله او نائبه على الارض ، بل اقتصر على ان يكون « مسيحه » . واذا كان ذلك قد اضفى عليه صفة مقدسة ، فانه ، مع ذلك ، لم يتصل مباشرة وبصورة عادية بالاله ، كما انه لم يمارس قط ، ولو نظرياً ، سلطات رئيس الكهنة . ولكن المركزية قد رافقها ، على الاقل ، تقدم ملموس نحو المركزية الدينية . فاقام داوود ، من قبل ، تابوت العهـــد في اورشليم ؛ وحين توفق سليمان الى تشييد الهيكل ، سعى جهده لان يتخلى الشعب عن المعابـــد العديدة المنشأة في زمن الحياة البدوية .

وقد اعارت الملكية الحياة الاقتصادية اهتماماً كبيراً ، سعياً وراء توفير مواردها . فحرث العبرانيون ارضهم واحرزوا نتائج حسنة،حتى في الحبوب ، فاستطاعوا ان يصدروا الى الفينيقيين القمح والزيت والعسل والشمع والطيوب . وقد حالف سليمان حيرام ملك صور ، على المتوسط ، كما نشط لاجتذاب تجارة القوافل من شرقي الاردن . وقد انشأ في الجنوب قاعـدة عاصيون جابر البحرية في اقصى خليج العقبة رغبة منه في ان يحوّل اليها شطراً من التجارة مع الجزيرة العربية التي احتكرتها مصر حتى ذاك التاريخ . ثم بنى المراكب وقدم له حيرام الملاحين . ولعـــل اسطورة ملكة سبأ احياء لذكرى العلائق التي ربطت العبرانيين بدولة زخرت بالكثـــير من المحصولات المرغوبة . وقد جاء في التوراة ان سليمان « جعل النقـــد في اورشليم عادياً كالحجارة » .

وقد استخدم ثرواته لا لتقوية جيشه فحسب بل لتجميل عاصمته ايضاً . فأقام على رابيـــة

صهيون الهيكل و « بيت الملك » الذي اكمله بقصر للملكة التي قيل عنها أنهـــا اميرة مصريه . ولكن التنقيب عن الآثار لم يتوصل الى اظهار هذا او ذاك من هذه الابنية . ولذلـــك فان كل محاولة لتحقيق تصميمها تكون مجرد اجتهاد . غير ان المعلومات التي توفرهـــا التوراة (الملوك الاول ، الفصلان السادس والسابع) تتيح لنا بسهولة التأكد من واقع تأثير مصر وبلاد مـــا بين النهرين ، على الرغم من ان الكاتب يشدّد باعجـــاب على المساعدة الفينيقية وعلى الاسراف في البذخ . وقد استعمل ، بسخاء كلّي ، خشب الارز والصندل ، والحجارة المنحوتـــة ، والذهب ، والفضة والشبهان . وصنع العرش الملكي من العاج المغشى بالذهب : « لم يسبق ان صنع شيء مماثل في اية مملكة » . « ما من اناء فضي » في آنية المائدة الملكية : « اذ لا اعتبـار لها في ايام سليمان » . وقد قدّم حيرام ملك صور كثيراً من هذه المواد ، كما قدّم بدون شك عمالا اختصاصيين . ولم يزدهر الفن عند العبرانيين الاّ في هذه الفترة القصيرة . ولكن يتعذر تكوين فكرة واضحة عن الاعمال المنجزة حينذاك ولسنا نعرف معرفة ثابتة سوى الامور التاليـــة : غنى المواد ، والسعي المقصود وراء العظمة والبذخ ، وفقدان الابتكار والتفرد .

الازمات والتيوقراطية

يبدو ان عهد الظلم هذا لم يدم طويلا ، اذ ان اولوية اورشليم قد اثارت الشكاوى ، لاسيما من الضرائب الباهظة والمركزية . فتفجرت الازمـة السياسية منذ موت سليمان في السنة ٩٣٥ وادت الى انقسام البلاد الى مملكتين : يهوذا ، وعاصمتها اورشليم ، التي التحق بها سبطان فقط ، واسرائيل ، وعاصمتها السامرة ، التي التحق بها الاسباط العشرة الاخرى .

وجاءت الازمة الاجتماعية اكثر عمقا واشد خطراً . كانت الحياة البدوية قد فرضت نظاما حياتيا ، ان لم يكن ديموقراطيا بالمعنى الصحيح ، فقوامه المساواة بين الشعب ، وذلك بفضل اشتراكية الاموال والاملاك . فازالته الحياة الحضرية رويداً رويداً ثم افضى الاقتصاد التجاري الذي شجعته الملكية الى التفاوت الاجتماعي ، وذلك بوضع الاغنياء والفقراء جنبا الى جنب . فهاج في النفوس الحنين الى الحياة البسيطة . وكان سليمان واورشليم وحدهمـــا في البدء موضوع انتقاد ، اي ان الانتقاد تناول الملكية التوحيدية وانشاءاتها البنائية التي جسّمت ، بلجوئها الى المحصولات الاجنبية ، الاقتصاد الجديد وعواقبه الاجتماعية الوخيمة . ثم شمل الانتقـاد ملوك اسرائيل ايضا الذين لم يبرهنوا قط عن انهم اكثر عدلا واسمى اخلاقا من ملوك يهوذا .

ولاح الخطر الخارجي اخيرا ليس من سكان الساحل والملوك الاراميين فحسب كما في الماضي بل من الملكيات العظيمة التي استعادت قدرتها على النهوض بالمهام خارج حدودها . ففقدت فلسطين فريسة للدسائس الدولية وساحة حرب تصادمت فيها الجيوش الاجنبية . فحالفت المملكتان ، على التوالي ، هذه الدولة او تلك ، وبحثت دون جدوى عن دولة حامية تكون اقل خطرا ، غير انها انتهتـــا الى الزوال . فقد فتح سرجون الثاني السامرة في السنة ٧٢١ ونفى ٢٧٢٩٠

شخصا من السكان الى بلاد اشور وقضى على اسرائيل. وفي السنة ٥٨٧ كان نبوخذ نصر اشد قسوة في اورشليم اذ انه دمرها نهائيا واجلى عنها كافة السكان الذين نفاهم الى بابل .

بيد ان كورش الاخميني ، بعد ذلك بخمسين سنة تقريبا ، وضع حدّا لهذا النفي واذن للعبرانيين باعادة بناء اورشليم. ولكن لم يكن هنالك بعد اي عضو من الاسر الملكية القديمة . ولم يكن الفرس ، ولا المقدونيون من بعدهم ، ليرضوا بقيام ملكية قومية جديدة . لذلك لم تعرف فلسطين باشراف المرازبة ، سلطة غير سلطة الطبقة الكهنوتية . وكان على رأس هذه الطبقة رئيس كهنة يدير شؤون البلاد ، يعاونه مجلس اعيان من المدنيين والكهنة ما لبث ان اطلق عليه اسم « سندرين *Sanhédrin* » (من اليونانية سندريون مجلس) اي المجلس الاعلى . ودام هذا النظام التيوقراطي الذي جعل من الدولة القديمة كنيسة ، بعد ان اصبحت دائرة في ولاية حتى القرن الثاني قبل المسيح ، اذ انتهت انتفاضة المكابيين على السلوقيين باستعادة الاستقلال وارجاع الملكية .

اولوية الديانة

ان هذه العجالة التي توجز ، على الرغم من اسهابها ، تاريخا كثير التقلبات ، تتيح لنا منذ الآن بعض الاستنتاجات .

فالعبرانيون لم يدخلوا سياسيا ، شيئا جديدا يستحق الذكر ، على تاريخ الحضارة . فالتيوقراطية نفسها ليست نظاما جديداً في حياة الشرق ، حتى ولا النظام القبلي من قبل ، وتكوين الوحدة الوطنية بقيادة شخصيات بارزة ، والازدهار القصير الامد الذي عرفته الملكية القائمة على مبدأ المركزية .

وكذلك فان اسهامهم الفني ، بقدر تخيلنا له على الاقل ، مفقود تماماً ، ولم يكن له ، على كل حال ، اي اثر في الخارج .

اما الادب فأكثر حظاً من الغنى . فنحن نعرف تاريخ العبرانيين بفضل التوراة في الدرجة الاولى . واذا كان لهذا المؤلف من قيمة تاريخية ، كثيراً ما نتمنى من جهة ثانية لو تكون اكبر ، – ولكن اي شعب اهتم للتاريخ حينذاك ؟ - فان اكثر من صفحة فيه تنم عن نفحة ادبية رفيعة . فان القوّة التي توحيها الصورة والعزم الذي تنبض به الكتابة والحياة التي يحيش بها التعبير ، كل ذلك يجعل من بعض القصائد روائع أدب يغذي نضارته نسغ شعبي ايضاً . ومما يلفت النظر ان عدداً كبيراً من اجمل القصائد القديمة تنسب لداوود نفسه : لا سيما نشيد القوس في صموئيل الثاني الذي ألّف بعد موت يوناتان وشاوول ، و ٧٣ مزموراً من اصل ١٥٠ . ويلفت النظر ايضاً ، على ما في ذلك من استبعاد ، ما ينسب الى سليمان من مؤلفات شعرية كثيرة جداً – اكثر من الف – بالاضافة الى « الامثال » و« نشيد الاناشيد » و « الحكمة » التي لا شك في انها احدث عهداً . وان الصلة المقامة بين الادب والملكية تثبت المركز الرفيع الذي خصّ به الادب ، وهو ، من حيث جوهره ، لم يغتصبه اغتصاباً . ولكن بعض علماء الآثار المصرية قد

برهنوا ان ادب التوراة هو ، اكثر من مرّة ، صدى للادب المصري . فالمزمور الرابع والتسعون مثلاً مستوحى ، بصورة ظاهرة ، من النشيد لأتون المنسوب لامنوفيس الرابع والموضوع منسوخ القرن الرابع عشر . ثم ان الشعر العبراني لم يترك في الخارج ذاك الاثر الذي لا يزال حياً حتى اليوم ، الا بفضل صلته الوثيقة بالحركة الدينية التي ألبسها زينة رائعة : وماذا كان مدى اشعاعها ، لولاه ، في الزمان والمكان يا ترى ؟ وهكذا فان الحضارة العبرانية ، على هـذا الصعيد ايضاً ، مدينة بالكثير من عظمتها الحقيقية الى الديانة التي هي ملازمة لها .

ويجب ان ننتهي الى الاستنتاج نفسه حيال التطور الاجتماعي . فاهمية هذا التطور ، بحدّ ذاته ، قائمة في توضيح الانتقال من اقتصاد جماعي وراعوي الى اقتصاد فردي وتجاري . ولا يلمس هذا الانتقال ، في غير مكان ، بمثل هذا الوضوح وفي مثل هذه الفترة القصيرة من الزمن . ولكن اذا ما نظرنا الى الدرس الذي استخلصه منـه الشعب العبراني ولقنه غيره من بعده ، فان الاهمية الحقيقية الكامنة في هذا التغيير الخطير تبرز في النتائج الدينية التي افضى اليها .

ب - الديانة وتطور النظريات الاخلاقية

ان الديانة العبرانية تنفرد ، منذ نشأتهـا ، بميزة خاصة . فليس من النادر ، في العالم ، ان يعترف شعب باولوية اله من الآلهة . ولكن ليس من شعب يأبى ان يعبد آلهة آخرين في الوقت نفسه . والى ذلك ، فان العبرانيين ، بالرغم من مخالطتهم للشعوب الاجنبية ، يسيرون قدماً في تحديد عقيدتهم الدينية الخاصة . ومن الجلي البين هنا انهم ينتقلون من عبادة اله واحد الى الايمان بوجوده والحد ولكن هذا الاله نفسه يتحول ايضا .

يهوه القديم

اثناء مرحلة « الخروج » التي انتقل العبرانيون فيهـا من مصر الى كنعان ، جعلهم رئيسهم ، موسى ، يعاهدون إلها ظهر له في سيناء ولعله بالاحرى ذاك الذي أكرم في واحة قدش جنوبي فلسطين . وقد اطلق هذا الإله على نفسه اسم « يهوه » اي « الكائن » او « المكوّن » . وقد دعوه ايضاً « ايلوهيم » وهي صيغة الجمع لكلمة « ايلوه » التي معناها « اله » ، لانهم جعلوا منه مجموع كافة القوى الالهية .

كان هذا الاله ، من نواحٍ كثيرة ، شبيهاً بآلهة آخرين كثيرين . فكان اله الحيـاة والنبات والخصب والعاصفة والغيوم ايضاً . وكان حامي النظام البشري يقتص من الجريمة ويقضي بالعدل ، اوحى الشريعة ولا يزال يمكنه الاستمرار في اجلائها ؛ وهذا ما صنعه شمش مع حمورابي . وقد فرض الختان . نعم ، لم تعمل شعوب آسيا الاخرى بهذه الفريضة ، باستثناء بعض القبائـل العربية ، ولكن عمل بها في مصر حيث عاش العبرانيون . وقد استلزمت عبادته ، شأن العبادات

الاخرى ، المعابد المختلفة والاعياد والطقوس والذبائح الدموية . وكان يكشف سر المستقبل ، اما بظهوره للبشر ، لا سيما في الاحلام ، واما بواسطة « قرع » خشبية يسترئيها الكهنة . ثم ان هؤلاء الكهنة قد جنّدوا في البدء من مختلف الاسباط ثم انحصر انتخابهم ، نظرياً على الاقل ، في سبط لاوي . ولكن كم من الشعوب كان لها طبقتها الكهنوتية ايضاً ؟

ولكن يهوه ، مع كل هذا ، يبقى متميزاً عن كافة الآلهة الآخرين لانه اله العبرانيين ويفرض على اسرائيل ان لا يكون لها اله سواه . وليس في ذلك نكران لوجود آلهة آخرين ، غير ان هؤلاء لا يمكن ان يكونوا الا آلهة شعوب اخرى . وقام بينه وبين العبرانيين « عهد » حصري الزامي لكلا الطرفين . وقد رمز الى هذا العهد « التابوت » ، اي الصندوق الذي اودعت فيه « لوحات الشريعة » ، والذي رافق العبرانيين في حلهم وترحالهم ، حتى اليوم الذي اقام فيه داوود في اورشليم . اما الاعياد التي تمتّ في البدء بصلة الى الحياة الراعوية والزراعية فقد غدت حفلات تذكارية لاحداث تاريخ العبرانين وشدت بالتالي وثاق العهد بين العبرانيين وبين يهوه . وهكذا فان الفصح ، وهو عيد كثير الرموز يرتبط في آن واحد بعبادة قمرية وبتربية الحملان وببدء حصاد الشعير ، كان يذكّر ، على نحدّ قولهم ، بالخروج من مصر . وهكذا ايضاً فان خيم عيد « المظال » الذي يحتفل به في الخريف للدلالة على نهاية الحياة النباتية ولاستنزال المطر الضروري للمواسم المقبلة ، كانت تذكر بظروفهم الحياتية اثناء اجتياز الصحراء . فالتفسيرات النوعية حوّرت اذن معنى الطقوس التي لم تنطو بحد ذاتها على اي تفرد وابتكار ، واسهمت في ابعاد العبرانيين عن الشعوب الاخرى وابعاد يهوه عن الآلهة الآخرين.

ولكن يهوه من جهته لم يبد وكأنه إله شامل يهتم لشؤون الشعوب الاحرى بل خص العبرانيين وحدهم بمحبته وعدله وعضده وقدرته الحامية مبغضاً جميع اعدائهم. وقد تجلى ، حيال هؤلاء ، تحيزه وعنفه وتعطشه للدم . وحبّذ كل مكيدة واوصى بكل ابادة واسترذل كل شفقة . وهو انما كان « اله الجنود » لاقامة شعبه في كنعان ولنصرته على الفلسطيين .

اخطار التأثيرات الخارجية

ذاك كان الاله الذي تطوّر .

كان بالامكان — ومن الطبيعي — ان يتجه هذا التطور نحو تقارب من الآلهة الآخرين ، وقد توفرت لذلك ظروف كثيرة . فاقامة العبرانيين في كنعان ، وتشتتهم واستيطانهم في وسط شعوب كان لهـا آلهتها وعباداتهـا ، وصفة هذه العبادات الزراعية ، وروابط هؤلاء الآلهة القديمة بالمواقع والينابيع والاشجار والصخور والجبال ، كل ذلك كان مبدعاة لإعداء شبه محتم . وبالفعل فان العبرانيين لم يقفوا احياناً عند حدّ التأثر بمغريات بعل وعشتروت الكنعانيين ومعابدهما واصنامهما وطقوسهما ، بل تجاوزوهما الى البلدان النائية التي اثر آلهتها في الملكية نفسها ، حتى في ايام مجدها ، كما في عهد سليمان مثلاً . فالعلائق التي ربطتهم بالعرب وبالفينيقيين بفوع اخص لم تقم دون مقابل ، ففرضت عليهم مصلحتهم التجارية المسايرة

والاغضاء عن بعض العبادات . وبعد ذلك ، لم يكن وجود الجيوش الاجنبية المصرية والاشورية والبابلية ، واقدام الفاتحين على انشاء مستعمرات في البلاد ، واقامة المنفيين في بلاد مـــا بين النهرين ، لتبقى دون نتائج . فكيف سمح اله العبرانيين لنفسه بالتهرب من واجبه في حماية شعبه ونزول كل هذه المصائب به ؟ أفلا تكفي هذه الاحداث كلهـــا للدلالة على تفوق قدرة الآلهة الآخرين الساحقة على قدرته هو ؟ وهكذا فان العهد القديم كان عرضة للنكسات الدائمة .

اورشليم

ولكن قوى اخرى اشدّ قدرة قد نشطت في عملها من جهة مقابلة . نذكر منها اولاً اولوية اورشليم . ويعود الفضل في هذه الاولوية لبادرة الملكيـة التوحيدية . وليس من شك في انها بدت كملحق طبيعي لكينونة هذه الملكية وبرنامجها السياسي القائم على المركزية . ناهضت الملكية ، بعد ان استقرت في اورشليم ، المعابد المحلية رغبة منها في احتكار نفوذ العبادة لمنفعة عاصمتها اي لمنفعتها الخاصة ، وتوصلاً لمراقبة الكهنة مراقبة اجدى . وكانت الغاية البيّنة من تشييد الهيكل الفخم تسهيل حصر العبادة في مركز واحد ، لا سيما وان الحصر يؤدي بالضرورة الى زيادة عدد التقادم ومحصولها .

ولم يفض قيام المملكتين الى النتائج التي توقع حصولها . ففي مملكة اسرائيل الواسعة ، وجد اتباع يهوه انفسهم اكثر ميوعة وانفلاتاً ، فنزعوا الى التظاهر فيها باستعدادهم لتقبل التأثيرات الخارجية ، ولا سيما الكنعانية منها . فبدا ايمانهم وما يستلزمه من طقوس اقل نقاء وصفاء . ولم يقدّر يوماً للسامرة ، على الصعيد الديني ، ان تنافس اورشليم ، اذ ان سياسة المركزية ، في مملكة يهوذا ، قد أمنت لها الفوز في هذا المجال . ثم ان السامرة ، من جهة ثانية ، قد سقطت نهائياً في ايدي الاجنبي ، مائة وخمساً وثلاثين سنة قبل اورشليم ، واخضعت لسيطرة اطول مدى اخذت على نفسها افساد الاخلاق . وحين استطاع احفاد المنفيين القدماء العودة الى البلاد ، كانت القضية القومية في حكم المنتهية .

استأثرت اورشليم اذن بالعبادة الحقيقية . ولم يوجد ، خارجاً عنها ، سوى اماكن للصـلاة المشتركة . ولم يشذ عن هذا المبدأ ، خلال التاريخ ، سوى تجاوزات نادرة حصلت كلهـــا في العصور القديمة . وبالرغم من تشتت الشعب فقد توجب الاحتفال بالاعياد الكبرى ، ولا ســـيما الفصح ، وفاقاً للطقوس ، على رابية صهيون ، ممـــا جرّ الى فريضة حجّ دوريّ سنوي الى الهيكل . وهكذا فان اسم يهوذا ، وهو اسم السبط الذي خرج منه داوود واسم المملكة التي كانت اورشليم عاصمة لها ، قد تخلّد في ما نسب اليه ، وهذا هو منشأ كلمة « يهودي ».

فكان على اورشليم بالضرورة ، والحالة هذه ، ان تسعى جاهدة للابقاء وللتشديد على ميزة الديانة التي كانت هي مركزها والتي لم تتميّز عنها عملياً . فكل تقرب ، ولو بعيد ، من عقيدة دينية غريبة ، وكل تبنٍّ ، ولو بعيد ايضاً ، لممارسة طقسية غريبة ، يثيران الريبة والشبهة . ثم ان عبادة العديد من الآلهة ، خارج اورشليم ، وهي نتيجة شبه حتمية للايمان بتعدد الآلهـــة ،

كانت لهذه الديانة بالمرصاد . ولذلك فان هذا الاستئثار من قبل صهيون لم يجد ما يبرره سوى الابقاء على العهد وشدّ اواصره .

الانبياء

يجب إذن ألا نهمل دور العوامل الزمنية . ولكن العوامل المقابلة ، وقد سبق تعدادها ، تكاد تكفي لابطالها . لذلك تحتم علينا البحث ، في غير مكان ، عن قوى اخرى حاسمة ، هي القوى الروحية التي احاطت العبرانيين ، بوجودها وبعملها ، بهذه الهالة من الاهمية التاريخية الحقيقية ، لانها حجر الزاوية في تفردهم ، وبالتالي في اشعاعهم المستمر. وقد تجسّدت هذه القوى في الانبياء الذين تنسب اليهم التوراة ، عملياً ، كل الفضل في الانتصار على التيارات الدنسة والنجسة ، وليس من شك هنا في انها جمّلت دورهم ايّما تجميل . ولكنها ، من جهة ثانية ، لا تقول شيئاً عن التطور . بيد ان التطور يتراءى بالرغم من صمتها . وبالرغم من صمتها ايضاً نرى ان الانبياء هم باعثوه الرئيسيون .

الانبياء عنصر حضارة العبرانيين الجوهري والمميز . وليس من حضارة ، على ما نعلم ، توفر لها مثل هذا العنصر . فقد قدّموا لهم ، على كل حال ، الخير الذي أدّى اختياره الى ابعادهم وفصلهم عن الحضارات التي عاصرتهم والى تأمين عظمتهم ووحدتهم . وطبعوا بطابعهم الخاص حتى الادب نفسه الذي سموا به الى مرتبة الآداب الرفيعة .

لقد كثر عددهم جدّاً منذ القرن الحادي عشر حتى قبيل العهد الميلادي ، بحيث ان عددهم هذا واستمرارهم جعلا منهم مؤسسة حقيقية خاصة بالعبرانيين لا يمكن ادراك العبرانيين بدونها . وقد خضعت هذه المؤسسة للتطور شأن كل ما يمت الى الانسان بصلة. ولكن الانبياء، بالتحديد، هم « الملهمون » — وهذا هو معنى اسمهم الجماعي نبيم *Nebiim* — او « الراؤون » او الذين يسكن الإله فيهم . لا يعوزهم جهد حتى يسموا اليه : فانما هو فيهم ؛ يستولي عليهم ويملي عليهم كلماته التي يميزونها بتأكيداتهم : « وحي يهوه » و « هكذا تكلم يهوه » . ولا حاجة للقول ، من جهة ثانية ، ان اكثرهم قد تكلموا ، في جوّ شامل من الغفلة ، دون ان يكون لكلامهم اي تأثير . واذا وجد منهم من فرض شخصيته ، فكم وكم غيره مرّوا ولم يشعر الناس بهم ؟

منذ البداية ، وقبل داوود نفسه ، ظهروا بشعر طويل اشعث ونفروا من المجتمع وكثيراً ما أثاروا الفضائح ، لانهم لا يراعون احداً ، لا الملك ولا الكهنة ولا الشعب . فان يهوه الذي يتكلم بلسانهم يجيز لنفسه الجسارات وحتى المبالغات . ولم يهتموا لكتابة خطبهم قبل او بعد القائها . وهكذا فاننا لا نعرف شيئاً عن قدامى الانبياء ، حتى ولا اسماءهم احياناً كثيرة . واوسعهم شهرة ، مثل ايليا واليشع في القرن التاسع ، اقرب الى ابطال الاساطير .

ولكنه وجد في بعض الامكنة ، حتى في ايامهم ، ما يمكن ان نعرف عنه بمدارس إعداد الانبياء . وقد استمرت هذه المدارس حتى القرن الثامن ، ويغلب انها هي التي باشرت جمع الكلام الذي يجب ألا يطويه النسيان . فالكلف الالهي ما زال ، من حين الى آخر ، يُنجم

منها ، ومن الجماهير المغمورة ايضاً ، رجالا خاضعين ليهوه ، غير مكترثين بكل شيء سواه ، عاجزين عن مقاومة القوّة التي تدفعهم وتحمّلهم فوق طاقتهم . ولكن عنفهم لا يلين ولا يخف . فان عاموس ويوشع واشعيا في القرن الثامن ، وارميا في القرن التالي ، وحزقيال إبّان النفي — ولا ضرورة لاطالة القائمة — يوجّهون الى المجرمين انفسهم المذمات نفسها والتنبيهات نفسها والنداءات نفسها التي نستطيع اليوم قراءتها في قصائد ملتهبة طويلة او قصيرة .

اما بعد النفي ، فان هذه المؤسسة قد فقدت بعض الالهاب الذي احياها حتى ذاك التاريخ ، فأصبح الانبياء اشدّ ارتباطاً بالكهنوت وبدوا لاهوتيين اكثر منهم انبياء .

المثل الاعلى والعمل النافذ

في مثل هذه الظروف ، يتضح ان لشخصية كل نبي اهميتها الخاصة التي كان من الجدير بنا ان نتوقف عندها ، لو امكن ذلك . ولكن هناك ، بالرغم من بعض الفوارق الخاصة في التعبير ، نزعات مشتركة بينهم هي التي سنقصر الكلام عليها وعلى اهم النتائج التي حققوها .

ان بعض اهدافهم لم يتحقق قط . ولا يعني ذلك ان الاضطهادات التي تعرضوا لها قد حطمت يوماً وثبتهم او خففت من نتيجتها . ولكن كيف نسقط من الحساب عامل الضعف البشري وتعذر مخالفة تيار الزمن . فان الكثيرين منهم نبضت قلوبهم بالحنين الى الحياة القديمة وما رافقها من مساواة . والاولون منهم حقدوا على اورشليم وعلى الهيكل الوافر الثروة ؛ ولم يتعلقوا بمحبته إلا بعد ذلك بزمن بسبب الفوائد التي جنتها منه وحدة العبرانيين ، وهي شرط قيام العهد بين العبرانيين ويهوه . ومقتوا التجارة والثروة لانها من اسباب افساد المجتمع وتفاوت طبقاته . وبالغوا في تحديد موجبات مثلهم الاعلى فاخفقوا في تحقيقه . ولكن الهزائم لم تقعس همهم فاحرزوا بعض النجاحات .

ولعل اهم نجاحاتهم واكملها ، وهو ذاك الذي سعوا وراءه بجهد لا يعرف الكلل ، ابقاء العبرانيين بعيدين عن اغراء العبادات الاجنبية ، واعادتهم الى إلههم وحده ، عندما يحيدون عنه . فتوجب عليهم ، لبلوغ هذه الغاية ، تعليل الويلات النازلة بالعبرانيين التي من شأنها ان تثير الشك حول قدرة يهوه على كل شيء وعزمه على حماية العهد . وقد توصلوا الى ذلك باتهام العبرانيين ، او بعضهم ، بتقويض العهد عن طريق الخروج على الشريعة . فغدا اشهار الاخطار المرتكبة ، في الحقلين الديني والاخلاقي ، موضوعهم المفضل ، الى جانب القصاص المقاسى او الداني ، وهو دليل الغضب الالهي . فشقوا بذلك الطريق امام تطور عميق تناول في آن واحد ، يهوه وعبادته ، والاخلاق والتشريع ، وجميع النظريات التي شيّدت عليها حضارة العبرانيين .

واكثر ما يتجلّى هذا التطور ، بحسب التوراة ، في التدابير المنسوبة ليوشيا ، ملك يهوذا سنة ٦٢١ ، اذ اخرج كافة الآلهة الغرباء ، واقفل كل المعابد ، وحصر العبادة نهائياً في اورشليم دون غيرها . ولكن التوراة تنسب اليه ايضاً نشر سفر « تثنية الاشتراع » ، وهو ليس

بالشريعة « الثانية » بل « نسخة » موجزة عن الشريعة القديمة . وقد وُصف هذا النص بانه « كتاب الشريعة الذي عثر عليه رئيس الكهنة في بيت يهوه » ، وهو ينطوي على بيان الاوامر والنواهي التي وجهها موسى الى الشعب باسم يهوه . بيد انه ، في الواقع ، يختلف عن الشريعة القديمة ، حتى في معناها . وما من شك في انه يمثل مجموعة قانونية لقرارات صدرت في تواريخ مختلفة ولاقت ما يبررها في نظرة الى الماضي . ويحدد بعض المؤرخين زمن صدور هذه المجموعة بالسنة ٦٢١ ، بينما يحدده غيرهم بمنتصف القرن الخامس . ومهما يكن من الامر ، فان التطور الذي تكرّس منه النتائج يحمل طابع تأثير الانبياء .

يهوه والعبادة

وهكذا فقد اصبح يهوه إلهاً شاملاً .

نعم ، لا يزال حزقيال يؤكد انه « مع اسرائيل » وان « الاسرائيليين خرافه » و« انه إلههم » . ولكنه يكتفي بان يحب العبرانيين فوق محبته للشعوب الاخرى ، اي انه لم يعد واحداً معها . لم يعد يتحيز لها ولا يتردد في الاقتصاص منها في ثورة غضبه من كبائرها . وعوضاً من ان يؤمّن لها السعادة الزمنية المستعجلة ، فانه وكل اليها رسالة حدّدت بعد النفي بما يلي : « انها امتي المختارة التي سكبت عليها روحي حتى تكشف الستار للامم عما هو عدل » . وايضاً : « ستكون نوراً للامم واداة خلاص للجميع ، حتى اقاصي الارض » .

فأي موضوع افضل من موضوع الشعب المختار يمكنه ان يعزي شعباً مستضعفاً ومستعبداً؟ ولكن هذا الموضوع يستلزم يهوه آخر تعالت قدرته رويداً رويداً واتسعت آفاقه . فهو لا يزال ، في نظر انبياء القرن الثامن ، اعظم الآلهة؛ ومن حيث انه خالق العالم ، فانه يستطيع ان يخاطب العالم باسره : « انصتي أيتها الشعوب ، انصتي جميعاً ! واصغي ايتها الارض ، انت وكل ما تحتوين عليه » . ولكن هذا لا يحول دون وجود الآلهة الآخرين . فان ارميا يؤكد ان « ليس من نسمة حياة في كافة الآلهة » ؛ كما يؤكد سفر تثنية الاشتراع ان « يهوه إله في السماء وعلى الارض وليس من إله سواه » ؛ وينسبون اليه بعد النفي قوله : « انا اله ، وليس من هو شبيه بي » . وهكذا تم انتصار الايمان باله واحد .

وقد جرّ هذا بصورة حتمية الى تهذيب اخلاق يهوه وتحويله الى روح . اجل انه يبقى اله « الجنود » ولكن هؤلاء هم الجنود السماويون ، جوقات الملائكة . وهو اكثر من اي وقت آخر ينادي بالعدل : « ان يهوه الجنود سيرتفع بالقضاء ، والاله القدوس سيتقدس بالعدل » . وقد تبرز احياناً الفكرة القائلة إن السعادة المادية ليست دليلاً على عطفه ؛ وهكذا تميزت الروح عن المادة .

فليس ، بعد ذلك ، من محرقات في القرابين . والتقوى الحقيقية انما تقوم في قلب المؤمن لا في الطقوس التي يتمشى عليها . فقد قال يوشع : « انا احب التقوى لا القرابين واؤثر معرفة الله على المحرقات » . وقال عاموس : « أبغضتُ ، كرهت اعيادكم . ولست التذ باعتكافاتكم ..

وذبائح السلامة من مسمّناتكم لا التفت اليها . ابعد عني ضجة اغانيك ، ونغمة ربابك لا اسمع . وليجرِ الحق كالمياه والبر كنهر دائم ». وقال اشعيا : « ازيلوا من امام عيني خبث اعمالكم ؛ انقطعوا عن عمل الشر ؛ تعلموا عمل الخير ، اطلبوا العـــدل ؛ احموا اليتيم ؛ اعطوا اليتيم حقه ؛ دافعوا عن الارملة » .

ثم ان التطور ، في موضوع الطقوس ، لا يقف عند هذا الحد ؛ فتخف فـــيما بعد مقاومة البذخ في الهيكل ، لان العبادة فيه قانونية وبعيدة عن التدنيس . وبالاضافة الى ذلك ، فان النظام الكهنوتي ، بعد النفي ، يؤدي الى حملة محتمة في سبيل طقوس تتصف بالمزيد من الايجاز والدقة والمراقبة . وستتخذ الفرائض الغذائية وحفظ يوم السبت ، بنوع خاص ، صيغاً بالغـــة الشدّة قد يفضي الخلاف حولها ، في نقاط طفيفة غالباً ، الى اطلاق العنان للبحث والتمييـــز والجدل . ولكن الفريسيين لن يكونوا يوماً كل ديانة اليهود ، وستترك الوثبـــة الادبية التي نهض بها الانبياء ، في هذه الديانة ، أثراً لا يمحى .

الشريعة

وهذا ما حدث للشريعة ايضاً .

فان العبرانيين يتفردون منذ ايامهم الاولى بانهم ادخلوا، اكثر من اي شعب آخر، الاخلاق في صميم شريعتهم ، وشريعتهم في صميم ديانتهم . فاللاهوتي فيهم لا يتميز عن المشترع ومهذب الاخلاق . وهكذا دائما نتلمس العهد في كل مكان . بيد ان تطور الشريعة يعكس ايضاً، بحكم الضرورة ، التنظيم الاجتماعي ورده الفعل التي تثيرها تغيراته . فان هنالك تطوراً في الواقع ، كما ان الفرائض الاطيار التي تؤلف الشريعة (التوراة) قد جمعت من مصادر مختلفة في تواريخ لا يمكن تحديدها . لذلك فاننا سنقصر الكلام على الخطوط الكبرى .

ليس من شك حول مبدأ التأثيرات الاجنبية ، والبابلية منها بنوع خاص ، إذ ان وصايا موسى العشر نفسها حديثة العهد اذا ما قورنت بالقوانين الشرقية الاخرى . وكذلـــك فان الشريعة العديمة قد تأثرت بالتنظيم القبلي . اجل ان الدائرة قد اتسعت حتى شملت الامة بكاملها. ولكن الشريعة لم تنفك شريعة شعب جعلتها مصائبه تميـــل نحو كره الاجانب . فمهما كان من رسالة اموس مثلاً ، فان الزواج من الاجنبيات قد بقي محرّماً ، والربى ممنوعـــاً بين المواطنين ، واستعباد الاجنبي غير محدد بزمان ، في حال ان استعباد الاسرائيلي يجب ان ينتهي في اول السنة السابعة للقسم الاعظم . بيد ان الروح المقابلة قد استمرت ، لا سيما خارج التوراة . فقد جاء في الامثال : « لا تفرح بسقوط عدوك » ، « واذا جاع عدوك ، فاعطه طعاماً واذا عطش فاسقه ماء ليشرب » . ولكن الغلبة لم تكن لهذه النزعة .

ومما يلفت النظر ان الشريعة العديمة قد بدأت بالسماح للعادات الطقسية بان تتسرّب الى وصاياها . فالوصايا إنما تختص باستعدادات الانسان الداخلية الخاصة وبسلوكـــه الاجتماعي ولم تدخل عليها سوى عناصر من واجب الاحتفالات والمظاهر الخارجية . فبالمقابلـــة لمفهوم

الطهارة الجسمانية ، افسحت مقاماً واسعاً للطهارة الروحية . فاتيح للانبياء إذن ان يشدّدوا بسهولة على هذا التمييز . وقد اظهرت عدّة نصوص مما سبق الاستشهاد به الاتجاه المتبع في ذلك . ولنضف هنا اللوم الموجه للغني والمقتدر اللذين يضران بالفقير ويسيئان استعمال ما اوتياه من سلطة . فعاموس يصم بالعار اولئك الذين « باعوا البار بالمال والفقير بنعلين » . « يرقدون على اسرّتهم ؛ يستلقون على فراشهم الوثير ؛ يأكلون حملان القطيع والعجول المسمنة ؛ يشربون الخمر في الكؤوس الكبيرة . يمسحون اجسامهم بافضل الزيوت » . ويتوجه يهوه ، بفم نبي آخر ، الى الرؤساء والامراء قائلاً : « ألستم انتم من يجب ان يعرف العدل ؟ انتم تبغضون الخير وتحبون الشر . انتم تسلخون لهم الجلد واللحم من فوق العظام . هم يفترسون لحم شعبي ... » وهكذا فان الجهد المبذول في سبيل تهذيب الاخلاق قد شارف الثوره الاجتماعية التي كان من شأنها ، لو حصلت ، ان تهدم نتائج التطور الاقتصادي .

وقد انتهى هذا الجهد ، في الواقع ، الى تشريع رائف بالمواطنين والضعفاء ، لنا عنه في تثنية الاشتراع اكثر من مثل : « لا تهضم اجرة مسكين ولا فقير من اخوتك او من الدخلاء الذين في ارضك في مدنك . بل ادفع له اجرته في يومه ولا تغب عليه الشمس لأنه فقير وبها يعول نفسه ... لا ترتهن ثوب أرملة ... اذا حصدت حصادك في حقلك فنسيت حزمة في الحقل فلا ترجع لتأخذها ، انها تكون للغريب واليتيم والارملة ... واذا قرطت زيتونك فلا تراجع ما بقي في الاغصان ... واذا قطفت كرمك فلا تراجع ما بقي منه .. » انها لعمري آراء أخلاقية سانية غدت تشمل الدخيل نفسه . نعم قد يكون لها سابقاتها في الشرق ، ولكن لم يسبق ان عبّر عنها بمثل هذا الحزم ومثل هذه الدقة .

بيد ان التطور قد أصيب بالركود بعد ان أثبتت نتائجه في نصوص التوراة النهائية . وقد تضافر كل شيء لإيقاف هذا التطور بعد تهدئة الحركة الاجتماعية التي أثارتها العودة من النفي : التنظيم التيوقراطي الذي اسبل نفوذاً وقوّة على كهنوت حارس للشريعة ، وبالتالي محافظ بالضرورة ؛ مفهوم الشعب المختار الذي جمّد العبرانيين في انفرادهم الملهم بالتحدي لكل ما هو جنبي ؛ تجديد العهد بينهم وبين يهوه الذي احال جمودهم فضيلة . عند ذاك بدأ الجفاف ، اذ ان الامانة للحرف قد جرّت الى خيانة المعنى .

التفرد الديني والاخلاقي

غير ان النتيجة كانت ، على كل حال ، فتحاً بالغ الاهمية : التفرد . واول من سلك طريق التفرد هم الانبياء . فلم يقم بينهم وبين يهوه اي حاجز ، شيئاً كان ام شخصاً . والروح الالهية كانت حالّة فيهم فغدوا عبيدها . وقد حاول بعضهم مقاومتها ولكن دون جدوى . ولكن عبوديتهم كانت عبودية مباشرة لا تحمل اي وسيط ، بحيث ان كلاً منهم قد تصرف حيال غيره من البشر بكل حرية واستقلال .

وبديهي انه لم يعط لكل انسان ان يطمح بمثل هذا الاستقلال لان العبودية تلك لم تتوفر

للجميع . ولكن تعليم الانبياء قد فرض على كل انسان ان يتوق اليهـــا بكل قواه وفضيلته ، كما ان تطور يهوه وعبادته قد جعلا من هذا التوق امراً واجبا . وقد اصبحت الديانة ، قبل اي شيء آخر ودون اي شيء آخر تقريبا ، داخلية وفردية وذاتية ، حيـــال اله روحاني ودمث الاخلاق . فقد ورد في تثنية الاشتراع ان الشريعة «قريبـــة جدّا منك ؛ بل هي في فيك وفي قلبك ». فوضعت بذلك قاعدة يمكن ان ينجم عنها نتائج لا تحصى .

بيد ان اسرائيل قد اقتصرت منها على هذه النتيجة : وهي ان كل انسان يجب ان يكون مسؤولا عن اعماله وحدها دون غيرهـــا . فحكمت بذلك على المسؤولية الجماعية التي تترتب على المجرم في شخصه وفي شخص انساله واسرته على السواء . وكانت هذه المسؤولية ركنا من اركان هيكل التنظيم الاجتماعي القديم ، ولكنهـــا لم تكن لتتفق والتعليم الاخلاقي الجديد والفكرة الدينية الجديدة ، حتى والظروف الحياتية الجديدة ايضا ، لان موجبـــات التفرد الاقتصادي ، على هذا الصعيد ، تنسجم وموجبات التفرد الديني والاخلاقي : فكيف يجوز تعـــاطي التجارة دون تحديد مسؤوليات الافراد ؟ وكيف يمكن ، من جهة ثانية ، ان يستمر العمل بالقـــاعدة القديمة ، في حالة التشتت التي وصلت اليها اسرائيل بفعل الإحن التي نزلت بها ؟ لذلك فلا عجب في ان نرى ارميا اولا وحزقيال ثانيـــا يتنكران للمثل السائر القائل إن تضرّس الاولاد مرده الحصرم الذي يأكله آباؤهم : « انما يتضرس آكل الحصرم نفسه ». فانتهت تثنية الاشتراع من ذلك الى الاستنتاج التالي: « لن يُمات الآباء بجريرة الابناء ولن يُمات الابناء بجريرة الآباء ، بل كل يمات بجريرة خطيئته » .

ولم تحرز الفردية نجاحات اخرى . لا بل كان من الواجب ايضـــا ، لو امكن ذلك ، تقديم البرهان على ان الفضيلة ، تلقى ابدا ثوابها والرذيلة تلقى ابدا عقابها في شخص من تُنسَبان اليه دون غيره . ولكن شتان ما بين هذا التمني والواقع . فمعضلة وجود الشر المقضـــة كانت حينذاك مطروحة دون حل . فبعد النفي ، اي بعد ان ظهر اثر الثنوية الايرانية ، وضع بعضهم الشيطان او بليـــال بازاء يهوه ولكن دونه مرتبة . وكانوا قبل ذلك يجهلون كل شيء عن ذلك وعن الابالسة ؛ فاسم الابليس ازمودي مشتق من الفارسية مثلاً . وشدّد غيرهم على فكرة الدينونـــة الاخيرة ، تلك الكارثة النهائية التي ينال فيها كل شخص جزاءه . وفي هذا ايضـــا يبدو الاثر الايراني . ولكن هذين الحلين لم يخرجا عن اطار النظريات التي لم تصادف تأييداً اجماعيا ولا تأييدا رسميا . فقد ولّى زمن التطور الخلاّق .

قسط العبرانيين الكبير

ولكن هذه المساعي توضح الطريق الطويلة التي سلكها العبرانيون . تميز العبرانيون بتفردهم منذ البداية ، ولكن هذا التفرد المحدود نوعاً ما لا يكفي لان يبرر القسط الذي تدين به الانسانية للعبرانيين . فان الاهمية العظمى لدورهم المقبل نشأت من حيث انها باشرت اخراج الانسان من المجموع في الحقل الديني نفسه الذي كان

الانسان فيه اكثر ما يكون انصهاراً في هذا المجموع. وقد توفقت الى هذه النتيجة ، مثبّتة ، في الوقت نفسه ، الانسان في ديانته . اما تفسير هذا التناقض الحقيقي ، في الظاهر على الاقل ، فيجب ان يبحث عنه في ما قام به العبرانيون ، بتأثيرات شتى ، من تنقية واستقصاء المشاعر الدينية .

وقد اصطدمت هذه النزعة بالمقاومات في بلاد العبرانيين نفسها ، حتى انها ، حوالي اواخر القرن الخامس قبل المسيح ، بدت وكأنها تغلبت عليها النزعات المضادة المتمسكة بالشكليات وبالشرعية . ولكن بذاراً لا يفنى كان قد القي في الارض ستزيد من قوته تأثيرات اخرى فينبت في المستقبل حصاداً روحيا لا تزال ملايين البشر تتغذى به حتى يومنا هذا .

الفصل الثالث

الحضارة اليونانية القديمة
(أي السابقة للعهود الكلاسيكية)

لننظر الى الاغريق بعد ان تنظم هذا الشعب واستقر في الرقعة المعدة لان تكون وطناً له : جنوبي شبه الجزيرة البلقانية ، والجزر الايجية ، وساحل آسيا الصغرى الغربي الذي سيقيم فيه حتى اوائل العهد المعاصر . انتهت حينذاك في تاريخهم حقبة كثيرة الغموض يزيد في بدائية حضارتها ان هذه الحضارة خلفت الحضارة الايجية المزدهرة. والكلام هنا عن «القرون الوسطى» اليونانية ليس بالتسمية التاريخية الكيفية . وفي اوائل القرن الثامن قبل المسيح تبدأ حقبة اخرى .

لما كان من الضروري ان يطلق عليها اسم ما ، وصفت بـ « القديمة » للمقابلة بينها وبين الحقب اللاحقة . وفي هذا الوصف تشديد على الاواصر الوثيقة التي تربط الاغريق حينذاك بالماضي وتعيق حركاتهم . وهم لن يفوزوا بالحرية إلا في اوائل القرن الخامس ، فيستثمرونها ايما استثمار . ولكن طاقات فتية برزت ، حتى في ذاك العهد ، فحدثت في البلاد تغييرات على درجة من الاهمية . وبانت على الخريطة نفسها تبديلات محسوسة . فتوسع العالم الاغريقي مرة اخرى ، وتأسست اسواق تجارية جديدة على جميع شواطىء البحر المتوسط والبحار الملحقة به تقريباً ؛ وفرضت الامبراطورية الفارسية سيطرتها على الممتلكات الاغريقية في آسيا . ولا حاجة هنا للكلام عن المنافسات التي قامت بين بعض الدول الاغريقية الاخرى . ولكن سرد هذه الاحداث لا يدخل في ما يستهدفه هذا الكتاب ، بل يجدر بنا ان نشدد على احداث اخرى تكشف لنا عن تغييرات في الصميم من هذا الشعب ، لا سيما وان الموضوع يعود بالنتيجة الى يقظته . تلك هي التحقيقات الاولى لحضارة ستعرف مثل ذلك المستقبل الباهر ومثل تلك التشعبات البعيدة . وتلك هي الوعود والدعائم التي اخذ الانسان يكتشفها فيها كي يخرج شخصيته من المجموع أو لا يتركها تختنق فيه على الاقل. وان وجود كل ذلك في طيات هذه الحقبة لبشير بان ايامها لن تطول .

لذلك فان كل من وجد آنذاك امام الحضارة اليونانية قد اهتم اهتماماً حقيقياً للتطور البادي. والتطور ، بحد ذاته ، أمر محتوم يعمّ كل الشعوب . ولكن الجميع لا يحققونه بمثل هذه السرعة

وبمثل هذا الشمول . ولا يعي الجميع خصوصاً معلولاته المتداخلة ونتائجه الطارئة ؛ أو انهم اذا رأوها يشعرون في اغلب الاحيان بميل طبيعي لان يرثوا له . نعم ، لقد وجد بين الاغريق ايضاً من استاء وأبدى استياءه . ولكنهم ، شأنهم في غير مكان ، لم ينجحوا في منع أي شيء ، لا بل انهم لم يلقوا هنا الآذان الصاغية التي لقوها في غير مكان . وقد وجدت خرافة العصر الذهبي ، في هذه الحضارة ، الدواء الناجع الذي تمثلته في توق جديد الى التغيير . فقد جاء الاغريق ، بالفعل، بجدّة روحية هي خيال مجنح لم يخفّه اقدام ولم يتراجع عن اكتشاف الوسائل الكفيلة بتحقيق احلامه . ولكنهم لم يكتفوا بوضع دستور للتقدم او لما اعتبروه تقدماً : فسيأتي يوم يتيهون فيه ويتخيلون « المستحيلات » الاولى . غير انهم لم ينتظروا ذاك اليوم لتحقيق اشياء جديدة كثيرة.

ولكن يجب الا نغالي في اهمية هذه الحقيقة حيال هذا العهد . فمنذ اوائل القرن الثامن حتى اواخر القرن السادس ليس هنالك سوى مقدمات فقط جهلها القسم الاكبر من العالم الاغريقي أو لم يأبه لها . ولكن يكفي ان تؤخذ بعض المناطق اذ ذاك بسحر هذه المقوّمات حتى يكون اتساعها المقبل جديراً باهتمام خاص .

فعرضنا لهذه الحضارة لا يمكن ان يعتبرها ، حتى في العهد القديم ، كمعطية ثابتة . بل سيهتم فيها عن قصد ، لكل ما يتطور وينبىء بالمستقبل . ولذلك فانه سيهمل اشيـــاء كثيرة ستسنح الفرصة المؤاتية لتوضيحها عندما يكتمل تفتح الحضارة الاغريقية وبصبح باستطاعتنا ان نأخذ لها رسماً اكثر استقراراً .

١ — التطور الاقتصادي والاجتماعي والسياسي

ان عوامل التطور السياسي متعددة . ففي الخلايا الصغيرة التي كانت المدن اليونانية قوامهـــا والتي انتظمت في عهد مبكر اجهزةً شديدة الحرص على استقلالها والتي اهلت ببضعة آلاف من السكان فقط — عشرة آلاف على الاكثر — ، يمكن لاسباب عابرة او محدودة الاهمية بحد ذاتها ان تفعل فعلهـــا وتترك أثرها : كسيكولوجية الانسان الشخصية مثلاً ، أو حربٍ تثير الحمية على الرغم من هزال غايتها ، أو تهديد يصدر عن جار قوي الشكيمة . واذا ما ألقينـــا نظرة شاملة على العالم الاغريقي باسره ، تبدت لنا العوامل الاقتصادية والفنية والاجتماعية المتداخلة والمتفاعلة. ولكن التطور السياسي الذي تسببه هذه العوامل يمكنه بدوره ان ينعكس عليها .

المجتمع القديم : دور الاملاك الواسعة

المجتمع القديم ريفي قبل كل شيء من حيث انـــه وليد مجازفات الغزو ومعارك الفتح وتسويات الاستيطان . وَمَثَلُ الانسان الأعلى ، الذي تثبت قوته دلائل كثيرة كتبت لها حياة طويلة احياناً ، هو الاستقلال الاقتصادي الضروري للاستقلال الادبي : فلكي يستطيع الانسان ان يعمل او يتجوّل على هواه، يجب الا يكون مقيداً باهواء زبون أو صاحب عمل . ولم يكن تحقيق هذا المثل الأعلى ممكناً إلا لذوي الاملاك الواسعة ، وهم إما أبطال حروب وإما انسال هؤلاء الابطال ، وقد نعموا في الوقت نفسه

بثروة وفيرة . كان تملك الارض ، بالفعل ، عنوان الثروة الوحيد تقريباً ، وكان هنالك اصحاب حرف لا شأن لهم وتجار لم يصل الينا منهم شيء يذكر . فالتجارة البحرية التي مارسها الميسينيون على نطاق واسع قد اصيبت بنكسة اكيدة على الرغم من استيطان الاغريق الباكر في شواطىء آسيا الايجية . واحتفظ الفينيقيون لانفسهم آنذاك بالمتوسط الغربي وكانوا يظهرون حتى في بحر ايجه . ولم يشر هيزيود ، في القرن الثامن ، بالسفر بحراً إلا على الفلاح التاعس الرازح تحت عبء الديون ؛ وتجدر الاشارة هنا الى ان الغـــاية من ذلك انما هي بيع جزء من الموسم لا لزوم له في الاستهلاك يمكن التصرف به ، في الاوقات العادية ، للهدايا والهبات . وكان هنالك فلاحون صغـار يتلكون بحرية بعض الاراضي ، ولكنهم عاشوا عيشة قاسية في ارض قليلة الخصب حيث تحدّ الحرارة الجافة المبكرة من انتاج الحبوب . وقد قام قسم من سكان الارياف باعمال مأجورة في حقول ذوي الاملاك الزراعية الواسعة .

استطاع هؤلاء وحدهم لا ان يتغذوا عن سعة فحسب – وقد اطلق عليهم ، حتى في العهود المتأخرة ، اسم « البُدُن » – بل ان يكرسوا ايضاً لارضاء شهواتهم قسماً من مواردهم . وقـــد برهنوا في مراحل تاريخهم المختلفة عن ميل للبذخ والزينة ابرز ما ينطوون عليه من رغائب بدائية . فقد حرصت هذه الارستوقراطية على ان تتميز في استعمال الاسلحة وان تعنى بالمحافظة على صفاتها الجسمانية لاجل القنص . وأحيت الولائم الفاخرة والمشروبات الروحية . وقد سخّرت لخدمتهـا في مساكنها الرحبة الكثير من الأرقاء الممتثلين لاهوائها . وقد طاب لهـــا عرض ما تنعم به من قوة وثروة . ولكنها اجلّت ايضاً الاقمشة والحلى النادرة ، والموسيقى وانشاد المغنين . فكان مثلها الأعلى ، الذي لم يقو تطورها الاجتماعي اللاحق على ازالته ، ولم يتنكر له على كل حال ، بل عمل جاهداً على تعميم نفعه على الطبقات الاخرى ، يجمع بين جمـــال جسماني متناسق وتهذيب اجتماعي رفيع ومستوى ثقافي لائق . وكان هذا في الحقيقة المثل الاعلى الاغريقي نفسه : انسان حرّ يمارس حريته لتنمية وارضاء مثل هذه النزعـــات فيه . ولكن استقلال الاشراف قد قام على ارتباط الغير بهم .

لذلك فان هذه الامتيازات لها ما يبررها غير التملك : فالقيمة الشخصية انما تتجلى في الحرب . كان لذوي الاملاك الواسعة وحدهم متسع من الوقت لاتقان التمرن ، والموارد الضرورية لاقتنـاء سلاح كامل ثقيل وغالي الثمن ، وامكانية لتربية الأحصنة . وستبقى رياضة ركوب الخيـل ، خلال قرون طويلة ، شهادة في الارستوقراطية لأن الارستوقراطية وحدها في البدء تمكنت من الانقطاع اليها . وكان على المحارب الحقيقي المجهز بأسلحة ثقيلة ان ينتقل الى ساحة المعركة على عربة ، يقودها حوذيّ ثم يقوم بحراستها ، بينما تحتدم المعركة بين سيّده وعدوّه الرّاجلين . أما المواطنون الآخرون فكانوا ينخرطون في الجنـــدية كمشاة ويقتنون الاسلحة التي تمكنهم مواردهم من اقتنائها وقد لا تتعدى المقاليع أحياناً . ولكن عددهم لم يرتفع قط عملياً : فمصير المعركة يتوقف الى حدّ كبير على مآثر الاشراف .

كان هؤلاء ، اذا ما حاربوا ، يخدمون الدولة ، فيوليهم ذلك حقاً بادارتهـا . ولكن الحرب من جهة ثانية كانت تعطيهم حق الانتفاع الشخصي بالغنيمة والرهائن . وكان يطيب لهم مزاولة القرصنة . فهنالك مشاهد إيحائية مرسومة على آنية « الديبيلون » المدفنية الكبيرة في أثينـا : مراكب حربية واعمال نهب وعرض محاربين وعربات عسكرية . تذكّر هـذه الصور بطبقة عسكرية تطلب المجد في نشاطها الحربي وتتباهى بعرض قوتها وثروتها .

أواصر الدم

حدث إذن توزيع اجتماعي فعلي على أساس الثروة والقوّة ، رافقـه توزيع آخر على أساس الأصل والانتساب . ولكن هـذا التوزيع الأخير يكتنفه الغموض لأنه على جانب كبير من الاصطناع ؛ بيد ان نتائجه ثابتة لا يرقى اليها الشك .

وأخذ المواطنون ، داخل المدينة ، ينتظمون جماعات يتدنى عدد افرادها يومـاً بعد يوم : القبيلة ، ثم « الأخوية » وأخـيراً « الجينوس » الذي يأتي مباشرة فوق الاسرة ، وهو القبيلة المحدودة أو الاسرة الكبيرة . ويبدو ان القبيلة والاخوية قد انتظمتا في كل مكان تقريبـاً ، في حال ان الجينوس لم يتأكد وجوده سوى في مدن معدودة . ويضم كل من هذه الجماعات مبدئياً ، في درجات نسبية مختلفة ، أولئك الذين ينحدرون من جدّ واحد والذين يتوجب عليهم ، بالتالي ، الاشتراك في عبادة جماعية . غير ان هذا التفسير ينطوي على الكثير من التبسيط ، اذ انه لا يوضح لنا ، بنوع خاص ، لماذا يسجّل المواطنون دون استثناء في القبيلة في حال ان الكثيرين منهم لا ينخرطون في أي « جينوس » أو ليس لهم بـه سوى علاقـة غير مباشرة كزبن لاحد الاشراف .

سنقتصر ، اختصاراً في الجدل ، على التثبت من واقع ، وهو ان النسب قد ناء بثقله عـلى التوزيع الاجتماعي وبالتالي على وجود المواطن . فليس لهـذا الاخير شأن ، كفرد ، بل كعضو في جماعة يصهره فيها انتسابه اليها وتقوم هي بدور الوسيط بينه وبين المدينة . ولكن شخصيته تعيقها أبداً أواصر الدم التي لم يكن ليتحرر منها إلاّ بفقدان حسنات تضامن الجماعة بينما يستمر غيره في الافادة منها . ويغلب ان هذه الحسنات قد اختلفت باختلاف الدول ، ولا تتوفر لدينا بعض الدلائل ، في هذا الصدد ، إلا لأثينا فقط . فقد كان محظراً على من يموت دون عَقِب ان يوصي بتروكاته الى غير أعضاء الجينوس ، ممـا يجيز لنا الاعتقاد بان البيع لم يكن مسموحـاً به ايضاً . ومن حيث ان القضاء الجنائي الرسمي لم يكن موجوداً ، فـان الاهانة اللاحقة بأحد اعضاء الجينوس انما تلحق بالجينوس بأسره ، مما أفضى الى قاعدة الأخذ بالثأر . فكان المواطن بالتالي امام قياس ذي حدين : البقاء خارج الجينوس والقبول بالعجز ، او الانخراط في الجينوس والقبول بالخضوع .

وانما نتكلم عن الخضوع لان ذوي الاملاك الواسعة في كل هذه الجماعـات ، قد نعموا بنفوذ مسلّم به . والثروة العقارية لا تتميز عن النبل والشرف . فقد طاب للأغنيـاء التباهي بنسبهم

البطولي ، وحتى الإلهي ، رغبة منهم في الارتقاء الى عالم الاسطورة . وقد هدفوا كلهم من وراء هذا النسب الى الدلالة على الدم الكريم الذي يجري في شرايينهم ، حريصين على إحلال الابكار في المرتبة الاولى . وهكذا فان رؤساء الاسر الكبيرة ، باعتمادهم على انسبائهم وعلى كلّ من يرتبط بهم بفعل مكانتهم الاجتماعيـة وطاقتهم الاقتصادية ، تمتعوا بنفوذ لا يعادله نفوذ ، وكانوا أسياد « جينوسهم » .

الدولة الارستقراطية

لم يكن من العسير في هذه المدن الصغيرة ان يعرف المواطن جميع المواطنين الآخرين. ولذلـك لم يعوز الدولة تنظيم قوي متين. فلا ادارة ولا موظفين ، بل بيت مال محدود ، يشرف عليه عدد محدود من المسؤولين لأن النفقات تكاد تنحصر في نفقات العبادة ؛ ولا جيش كثير النفقات لان الجندي هو الذي يؤمن شراء اسلحته ؛ ولا قضاء يستحق الذكر لان الدولة لا تعنى بتوزيع العدل إلا نادراً جداً . وقد أفضى ضعف الدولة هذا الى تقوية نفوذ راهن استأثر بـــه رؤساء طبقة الاشراف ولم يكن باستطاعة احد ان يراقبـــه او يحدّ منه .

وكانت الدولة نفسها ، على كل حال ، في قبضة يدهم. اجـــل قامت الملكية في كل مدينة تقريباً . ولكنهم توصلوا الى حصرها في لقب لا حول له او الى إزالتها تماماً في بعض الاحيان. واذا ما حدث واستمر بقاء الملك ، فإن هذا الملك يكون عملياً بمثابة قاض سنوي لا تسند اليه سوى مهام دينية . اما الأشراف فهم الذين يحكمون ، ولا تلتئم جمعية المواطنين الا شكلياً اذا طاب لهم احترام مبدأ السيادة الجماعية . فالسلطة الحقيقية يتمتع بها « المجلس » المؤلف من اعضـاء وارثين او منتخبين وفاقاً لأصول هي في الحقيقة مجرد مظاهر خارجية. وكانت مظاهر خارجية ايضاً الاصول المعتمدة لتعيين القضاة السنويين الذين يشرف المجلس عـــلى ولايتهم ايضاً . وفي الواقع كان اعضاء المجلس والقضاة ينتخبون من طبقة الأشراف دون غيرهـا وخصوصاً من كبار هذه الطبقـة . وكان القضاء ، مع ان القضاء الرسمي شبه مفقود ، من امتيازاتهم ايضاً ، لا سيما وانه لم يستند الى قوانين مكتوبة ، بل الى اصول تقليدية ، إلهية المنشأ بحسب اعتقادهم ، ينقلها الآباء شفاهياً الى الابناء في أسر قريبة جـداً من الآلهة بفعل نسبها وحكمتهـا الذائعة الصيت . فيتضح ان الاشراف امنوا بذلك ، عملياً ، احتكار القضاء ، وضمّوا اليـــه تذرّعاً بالاسباب نفسها ، احتكار المهام الكهنوتية الرئيسية . وكان من الطبيعي ، بعد ان سيطروا في ساحـات الحرب والمجتمع والحياة الاقتصادية ، ان يسيطروا في الدولة ايضاً .

هكذا كان النظام السائد في كل مكان ، بالرغم من بعض الفوارق المحليـة التفصيلية . وهذا هو نظام « الارستوقراطية » أي حكومة الأفاضل (نسباً وصفات) ، أو « الأوليغارشية » اي حكومة العدد القليل ، كما سميت ازدراء في تاريخ لاحق . غير ان هذا النظام لم يوفّر الهدوء والراحة . فالمطامع والاحساد والاحقاد قد أدت الى انقسام هؤلاء المحظيين . ولعـــل فقدان

الثقة فيما بينهم سبب من أسباب رغبتهم عن توسيع سلطات الدولة . وكان التحيز في القضاء مدعاة للشكاوى وللاتهام بالرشوة . فهيزيود يصف الحكام « بآكلة الهدايا » . وكان الفقراء والمستاؤون ينزحون عن الاوطان ساعين وراء الاراضي أو مخاطرين بحياتهم كمرتزقة في خدمة السلاطين الشرقيين . ولكن الاسباب الحقيقية لتقلبات الاحوال خارجة عن النظام نفسه .

اسباب تقلبات الاحوال: تقنية الحرب

فهذه الاسباب متعددة . ولن نهمل منها التطور الذي طرأ على تقنية الحرب .

اصبحت عدة الحرب اخف وزناً ؛ فخففت قياسات الترس وادخل المزيد من الجلد على الدرع . وتعوّد المشاة من جهة ثانية تشكيل وحدة متراصة ، الكتيبة ، التي يصعب اختراقها بفضل سور الحراب الموجهة نحو الخارج . فغدت العربات دون جدوى حيالها ، ولم تظهر بعد ذلك الا في الاحتفالات الدينية المحافظة على الماضي او في الجيوش القائمة عند حدود الشرق . وظهر الفرسان الذين اختيروا بين النخبة في المجتمع . ولكنهم لن يصبحوا ، الا بعد زمن طويل ، وحدة قادرة على النهوض بالكرات العنيفة . ولذلك لم يلعبوا سوى دور الكشافة او اكتفوا باعداء الجياد في المواكب . وغدا مثال المحارب ، منذ ذاك الحين ، «الهوبليت» ، اي «الرجل المسلّح» ، وفاقاً لاشتقاق هذه الكلمة . ولكنه عملياً كان ذاك المواطن المنتمي الى الطبقة الوسيطة القادر على تحمّل نفقات عدّة حربية اقل كلفة وخادم يساعده في المسير والحياة المادية .

وتكامل المركب الحربي ايضاً فضمر وسهلت ادارته واستخدم فيه المزيد من الجذافين الذين انتظموا صفوفاً يعلو بعضها البعض الآخر . وقد تحققت في كورنثوس اهم هذه التحسينات التي تعود الى السنة ٧٠٠ كما يؤكد «توسيديد» . وظهر بعد ذلك «التريار» وهو النموذج المعروف للمركب الحربي الذي اعدت فيه ثلاثة صفوف للجذافين ويتسع ل ١٧٠ جذافاً موزعين ثلاث فرق ولمشاة ينقلون الى حيث تدعو الحاجة .

فحد ذلك من احتكار الاشراف للدفاع عن المدينة ، فاضطروا للتنازل عن القسم الاكبر من امتيازاتهم لطبقة الهوبليت الوسيطة ، وقسم اصغر سيتسع مع الزمن في المدن البحرية ، للطبقة الفقيرة التي ينتمي اليها الجذافون وهم اقوياء البنية بالرغم من انهم شبه عراة . فتعذر عليهم بالفعل نفسه ، ان يبرروا عملياً استئثارهم بالسلطة السياسية .

اسباب تقلبات الاحوال: الثورة الاقتصادية

يكشف لنا تطور المركب الحربي ان اهمية الامور البحرية قد زاد شأنها . فحتى ذاك العهد كاد الاهتمام لها ينحصر في ناحية القرصنة . ولم يتعاط التجارة البعيدة ، في حدود اشتراك الاغريق فيها ، سوى المغامرين العادمي الاعتبار الذين رفضت كل المدن تبني منازعاتهم . ولكن تطوراً اقتصادياً قد حدث ، منذ اوائل القرن السابع بنوع خاص ، هو في الحقيقة ثورة لا تطوّر .

بدأ الاستعمار اليوناني حوالي اواسط القرن الثامن وقد اتصف في اول عهده بطابع زراعي .

وقد هاجر الذين هاجروا تخلصاً من نظام اقتصادي واجتماعي انتهى بهم الى البؤس او الى الخمول. وقد اسست اقدم المستعمرات ، في ايطاليا الجنوبية كما على البوسفور ، في افضل المناطق تربة ، دونما اعتبار رئيس للمركز الهام على طريق بحرية عظمى. وهكذا فان خلقيدونيا، على الشاطىء الآسيوي ، قد اسست سبع عشرة سنة قبل بيزنطيه ، على الرغم من افضلية موقع هذه الاخيرة ، مما جعل احد الفرس الذين علموا بهذا الفارق الزمني ، يتهم الاغريق بالعمى . ولكن الامور تبدلت بفعل الاستعمار نفسه .فوفّر المزيد من المواد الغذائية . وزود الصناعة بالخامات فنهضت واتسعت اسواقها . وازدهرت التجارة . وبرزت المنافسة . وكيفت بعض المدن سياستها وفاقاً لاغراض جديدة فاختيرت للاقامة مواقع هامة يتحتم مرور الطرقات فيها ، بغية مضايقة المنافسين ، وبدأت في الظهور «نزعة استعمارية » لا تزال بدائية الى حد بعيد ، على اصطباغها بمشاغل اقتصادية .

واتفق في الوقت نفسه ان فقد الفينيقيون دورهم كوسطاء وحيدين تقريباً مع الشرق . فاستوطن الاغريق نهائياً على ساحل آسيا الصغرى الغربي الذي تقوم وراءه المملكة الليدية حيث استقبلوا على الرحب والسعة ايضاً . واستولوا على الجزر الايجية وعلى رودوس بنوع خاص ، وسيطروا على قسم من قبرص وانتهوا الى تثبيت اقدامهم في دلتا النيل ، فاتصلوا بذلك ، بصورة مباشرة أحياناً وغير مباشرة ابداً ، بالحضارات الشرقية . فجاؤوا منها بالمواد والمصنوعات والتقنيات والمعارف المختلفة . وصرّفوا بسهولة مصنوعاتهم الخاصة .

وحددوا ، في عهد مبكر نسبياً ، احتذاءاً بالشرق ، أنظمة الموازين والمكاييل التي لم يتوصلوا يوماً الى توحيدها . ولكن بعض هذه الانظمة عرفت انتشاراً واسعاً . وأوجدت معادلات مختلفة ، باضعاف الوحدة واجزائها ، لا سيما في حقل النقد . فالنقد قد ظهر ، هو ايضاً ، في اوائل القرن السابع. اما بصدد نسبة ابتكاره الى اغريق آسيا او اغريق أرغوس او الليديين ، فلا يسعنا الخيار بين التقاليد المتناقضة التي يتعذر الجزم في نصيبها من الصحة . ومهما يكن من الامر فان استعمال النقد قد انتشر ، فضربت المدن الاغريقية في آسيا الالكترون (الكهرباء) خصوصاً ، وهو مركب معدني طبيعي متفاوت العيار . اما في اوروبا فقد ضربت الفضة بالنظر الى ندرة الذهب . فسهلت بذلك المبادلات التجارية الى حد بعيد .

انطبعت الثورة الاقتصادية بهذه التقلبات المتعددة ، ولكنها لم تعمّ كافة المدن الاغريقية حينذاك . لا بل ان مدناً كثيرة امتنعت عن ترويج القطع النقدية او لم تقرر ذلك الا في عهد متأخر . ففي أثينا مثلاً لم تظهر القطع النقدية الرسمية ، حاملة شعارات المدينة دون شعارات الاسر الكبيرة ، إلا خلال القرن السادس . وقد حافظ الشطر الاكبر من بلاد اليونان البرية ، حتى عهد لاحق متأخر جداً ، على اقتصاد زراعي صرف . ولكن الاقتصاد الصناعي ـ التعدين والمنسوجات والخزفيات ـ والتجاري قد احرز الغلبة في بعض النقاط ، دون ان يُضحّى، عن قصد ، بالزراعة يوماً من الايام .

نتحقق من ذلك في آسيا الصغرى ، لا سيما في المنطقة الوسطى من الساحل الايجي ، أي ايونيا . وكانت « ميلَه » بلا مراء ، اوسع مدن هذه المنطقة نشاطاً ، عند مصب نهر الميماندر (مندريس) . فقد نعمت ، وحدها ، بالقوة الكافية لان تفرض حتى النهاية على « المرمناد » في مدينة سارد عقوداً بالتفاوض . وقادت حركة التوسع والامتداد نحو المضائق والبحر الاسود فتوصلت ، على ذمة الراوي ، الى تأسيس او استتباع تسعين مدينة أو سوقاً تجارية في هذه المنطقة . واشتركت في الحركة الجماعية التي أدت ، في دلتا النيل ، الى تأسيس نوكراتيس من قبل اثنتي عشر مدينة يونانية منها احدى عشرة شرقية وواحدة اوروبية . وصرّفت محصولاتها الى ايطاليا ايضاً ، عن طريق سيباريس المدينة بثروتها الاسطورية لهذه التجارة . لكن جيرانها حاولوا الاحتذاء بها ، ويكفي ، اختصاراً في التعداد ، ان نذكر ان مرسيليا اسسها ايونيو « فوقيا » في السنة ٦٠٠ وحافظت على علائقها التجارية الوثيقة بايونيا حتى احتلال الفرس لهذه البلاد .

أما في اوروبا فكانت الحركة أقل اتساعاً . ولكنها برزت مع ذلك في القسم الاوسط من ساحل اليونان الشرقي الذي يعدّه مركزه ، بالتفضيل على غيره ، للعلائق مع آسيا . وقد ظهرت نتيجة ذلك في الازدهار الذي حققته جزيرة « اوبيا » على ضفة المضيق المستطيل الذي يفصل هذه الجزيرة عن اليابسة . بيد ان هذه الحركة تميزت بالنشاط في منطقة برزخ كورنثوس التي أعدّها موقعها الممتاز للمقايضات بين الشرق والغرب ، في منتصف الطريق بين آسيا الصغرى والمستعمرات في ايطاليا وصقليا . فبدلاً من الدوران حول البلوبونيز ، آثر التجار ان ينقلوا البضائع من مركب الى مركب عن طريق البرزخ . وقد توصلوا الى اكثر من ذلك بعد حين اذ بقاوا المراكب نفسها على طريق خشبية . وأفادت كورنثوس من ذلك كثيراً لا سيما وان لها مرفأ في كلا الخليجين . فكانت خزفياتها ، لمدة طويلة ، اوسع الخزفيات انتشاراً كما تؤيد ذلك مكتشفات ايطاليا . ولكن النشاط التجاري امتد حولها كما تمتد بقعة الزيت فشمل « سكيوني » نحو الغرب ، و « ميغارا » او « ايجينا » نحو الشرق . وكانت اثينا ايضاً على مقربة منها ، ولكنها لم تستيقظ من سباتها إلا في القرن الرابع . غير انها تقدمت تقدماً حثيثاً ، وعند نهاية العهد القديم كانت قد اخذت محل مدن « اوبيا » في التجارة وكانت خزفياتها قد تفوقت على خزفيات كورنثوس . وخلال الفترة الممتدة بين الحربين الماديتين ، اتاح لها اكتشاف عروق جديدة ، في مناجمها الفضية ، بناء اقوى اسطول حربي في ذاك العهد ، ذلك الاسطول نفسه الذي لعب ، في السنة ٤٨٠ ، الدور الاول في سلاميس ضد الاسطول الفارسي العظيم .

اما في « العالم الجديد » اليوناني الذي ابصر النور بفضل الاستعمار ، فان مستعمرات صقليا وايطاليا الجنوبية وحدها قد لعبت دوراً اقتصادياً مستقلاً جديراً بالذكر في هذا العهد . ولكن يجب ألا ننزلق الى المغالاة . فلا شك في ان ازدهارها العام قد فاق ازدهار مدن اليونان نفسها .

ولكن مرد هذا الازدهار الاول زراعة انتجت ، في سهول اوسع منهـا في اليونان ، محصولاً اوفر لكثافة سكان دنيا ، فامكن بالتالي تصدير الفائض . وكانت بعض المدن بمثابة مستودعات فنهضت بدور الوسيطات لتصريف المحاصيل اليونانية عند ابناء البلاد الاصليين . ولكن اثنتين منها فقط ارتفعتا الى مرتبة المراكز الناشطة بصناعات محلية ناشئة حينذاك ومدعوّة لان تنمو وتتقدم: «طارنتا» في ايطاليا وخصوصاً «سيراكوزا» في «صقليا».

بيد ان الاعتقاد بان الاقتصاد الجديد في العالم اليوناني اتصف باهمية عظمى من حيث قيمته المطلقة او النسبية ، فخطأ جسيم جداً . فلم يرافق نموّه شيء من الذيول التي يمكن ان يذكرنا بها درس الحضارات العصرية . ولم يكن هنالك «رأسمالية» ولا «اتحاد» مؤسسات للحيلولة دون المنافسة . وقد بقي الانتاج حصيلة المشاغل الصغيرة ، كما ان التجارة لم تكن وقفاً على مؤسسات كبيرة معدودة . ويجب القول تكراراً ، من جهة ثانية ، ان الشطر الاكبر من العالم اليوناني قد استمر مرتبطاً بحياة منكمشة على نفسها .

غير ان الزمن القديم قد ولّى على غير رجعة .

الازمة السياسية والاجتماعية

فمنذ ذلك الحين لم تمثل الثروةُ العقارية الثروةَ الوحيدة الممكنة. نعم انها بقيت فوق غيرها اعتباراً واحتراماً لانها اثبت من كل ثروة ولانها وحدها تتيح مقاربة المثل الاعلى للانسان الحر الذي ما كان الرأي العام اليوناني يوماً ليتخلّى عنه تخلية تامة . ولكن واحداً لم يستطع عملياً ان يهمل الثروة المنقولة . وقد حدث في اغلب الاحيان ان هذه الاخيرة لم تتجمع لدى الاشراف الذين أبقتهم اعتبارات قديمة بعيدين عن الصناعة والتجارة ، طالما لم يشعروا بحاجة الى تجديد ثروتهم . وكان اكثر الاغنياء الجدد غرباء عن ارستوقراطية النسب ، ويرجح ان حالات الزواج المختلط لم تتعد الاحداث العابرة ، فتوجب على الطبقة الحاكمة ، والحالة هذه ، ان تحسب حساباً لرجال جسّرهم نجاحهم المادي فرغبوا ، هم ايضاً ، في الاشتراك في شؤون الدولة .

ولم يكن المعارضون ، من جهة ثانية ، ليقصروا هجومهم على الناحية السياسية وحدها حيث التحق بهم اعضاء الطبقة الوسطى العاملين كهوبليت في خدمة الدولة . فبفعل النشاطات نفسها التي تفرغوا لها ، بدا لهم تنظيم القضاء وتنظيم المجتمع على اساس الجينوس غير وافيين بالغرض الذي وضعا له ، لانهما لا يتلاءمان والاقتصاد الجديد . فهذا الاخير يستلزم قواعد قانونية واضحة تكون بمأمن من هوى القاضي. ويجب ايضاً ان تظل المسؤولية المالية في المشاريع الفردية محصورة في الفرد دون غيره . وهكذا فقد اصبح كل شيء موضوع انتقاد وتجريح .

وقد حدث ما هو اشد وادهى . ففي بعض المناطق على الاقل ، لا سيما تلك التي بخلت تربتها بانتاج الحبوب ، اضطر الفلاحون الصغار للاستدانة ، ويرجح ان منافسة المحاصيل الزراعية المستوردة قد ثقلت وطأتها . ولكن الاستعباد بسبب الديون ما فتىء ساري المفعول . وكان

المدين العاجز عن الوفاء ، على كل حال ، يفقد حقه في تلك ارضه . فاشتدت الازمة الاجتماعية اذن في المناطق الريفية . ومن حيث ان اليد العاملة في المدن تتمثل بالعبيد جزئياً فلم يتبق امام منكودي الحظ الا احد حلين : النزول الى مرتبة المزارعين الذين يعاملون بكل قسوة ، او الهجرة اما شطر المدن الجديدة النائية واما شطر مغامرات الارتزاق في الجيوش الاجنبية . وقد برز بعض الثوريين الاجتماعيين ببرنامج مؤلف من بندين لن يعتما ان يصبحا تقليديين : توزيع الاراضي وإلغاءالديون . فاصابت سهام هذا البرنامج مصالح كل من الثروة القديمة والثروة الجديدة ، على ان ما اصاب هذه دون ما اصاب تلك .

تفاوتت حدة الازمة وفاقاً للمناطق والمدن. فأدت احياناً الى حروب اهلية رهيبة استباح فيها الطرفان حتى التقتيل وتقرر اجمالاً في نهايتها نفي الخصوم وحجز ممتلكاتهم . بيد ان نصاً ثورياً واحداً لم يصل الينا عبر القرون ، في حال ان لدينا قصائد نظمها بعض الحكام من الارستوقراطيين كه«ألقيا» و«ثيوغنيس». وكي نكوّن فكرة عن حدة الاحقاد الثائرة ، يكفي ان نستشهد ببعض المقاطع من ثيوغنيس: «ان مدينتنا لا تزال مدينة ؛ ولكن السكان قد تبدلوا ؛ فاولئك الذين لم يعرفوا فيما مضى لا حقاً ولا قوانين ولم يصلحوا الا لإخلاق جلود الماعز حول كشوحهم للرعاية خارج الاسوار شأن الاوائل ، قد غدوا وحدهم الصالحين بينما فقد شرفاء الماضي مكانتهم واصبحوا لا يلوون على شيء ... لست اتراءى العقاب يحل بمن انتزعوامني بالقوة ممتلكاتي ... آه لو يتاح لي ان اشرب دمهم الاسود ! »

المشترعون

وهكذا فقد طرأ التغيير ، في اكثر من مدينة ، على الوضع القديم القائم . وقد اختلفت اساليب هذا التغيير اختلافاً بيناً . فنحن ولو وضعنا جانباً الحرب الاهلية ، وأخذنا بعين الاعتبار النواحي الكثيرة التي نجهلها ، يحق لنا الجزم بانه لم يحدث ان تعاقبت مراحل التغيير وفاقاً لنظام واحد او في تاريخ واحد . واختلفت الوسائل ايضاً ، فهي شرعية حيناً وعنيفة حيناً آخر ، وقد تعاقبت هذه وتلك تعاقباً مطرداً .

فكُلّف إذ ذاك بعض ذوي الاعتبار ، وغيرهم أحياناً ممن اختيروا من خارج المدينة لتجرّدهم، مهمةَ وضع شرائع مكتوبة . وتحقيقاً لهذا الهدف ، لم يقتصر احد من « المشترعين » على تدوين الاعراف الراهنة ، بل ادخلوا كلهم نصوصاً جديدة يرجح انها اخذت بعين الاعتبار التطور العام . ومهما تكن الاحتياطات التي اتخذوها بغية الحؤول دون التحويرات اللاحقة — اذ انه من الطبيعي ان يعتقد كلٌّ منهم بأنه قام بعمل نهائي—فان الشرائع الصادرة عنهم لم تبد وكأنها تعبير للارادة الالهية ، أو انها بدت أقل تعبيراً لهذه الارادة . فلا يمكن باي وجه وسمها بانها لا تمس . ومن جهة ثانية ، حدّت هذه الشرائع من مدى تعسف القضاة .

الإستبداد والحصارة اليونانية

في غير مكان ، أو غير زمان ، انتزع « المستبدون *Tyrans* » السلطة بالقوة القاهرة . والكلمة ليست يونانية الاصل بل انها

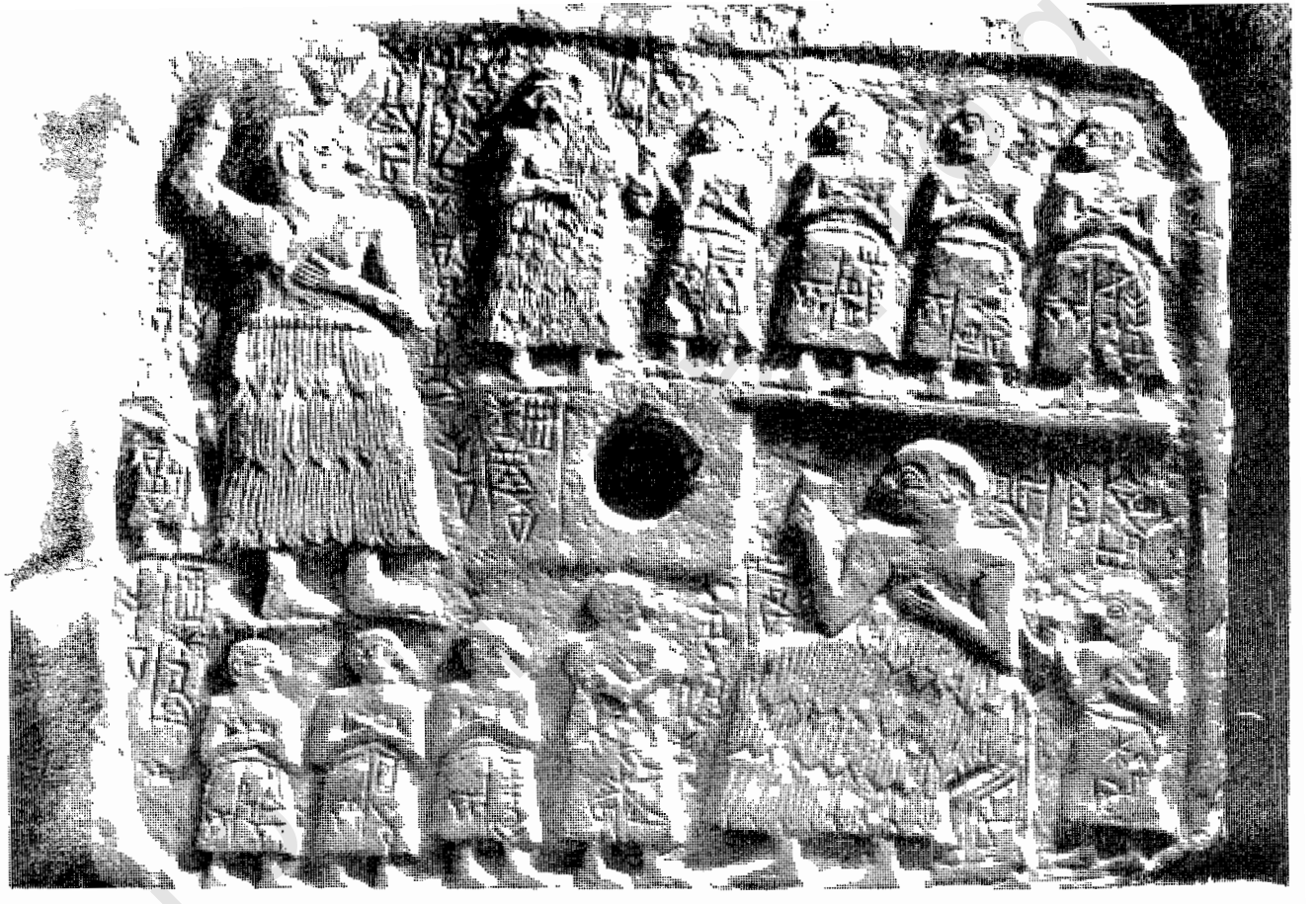

١٧ – أور ـ نانشى ، ملك لاغاش ، وعائلته (حوالي السنة ٢٨٠٠ قبل المسيح) . متحف اللوفر.

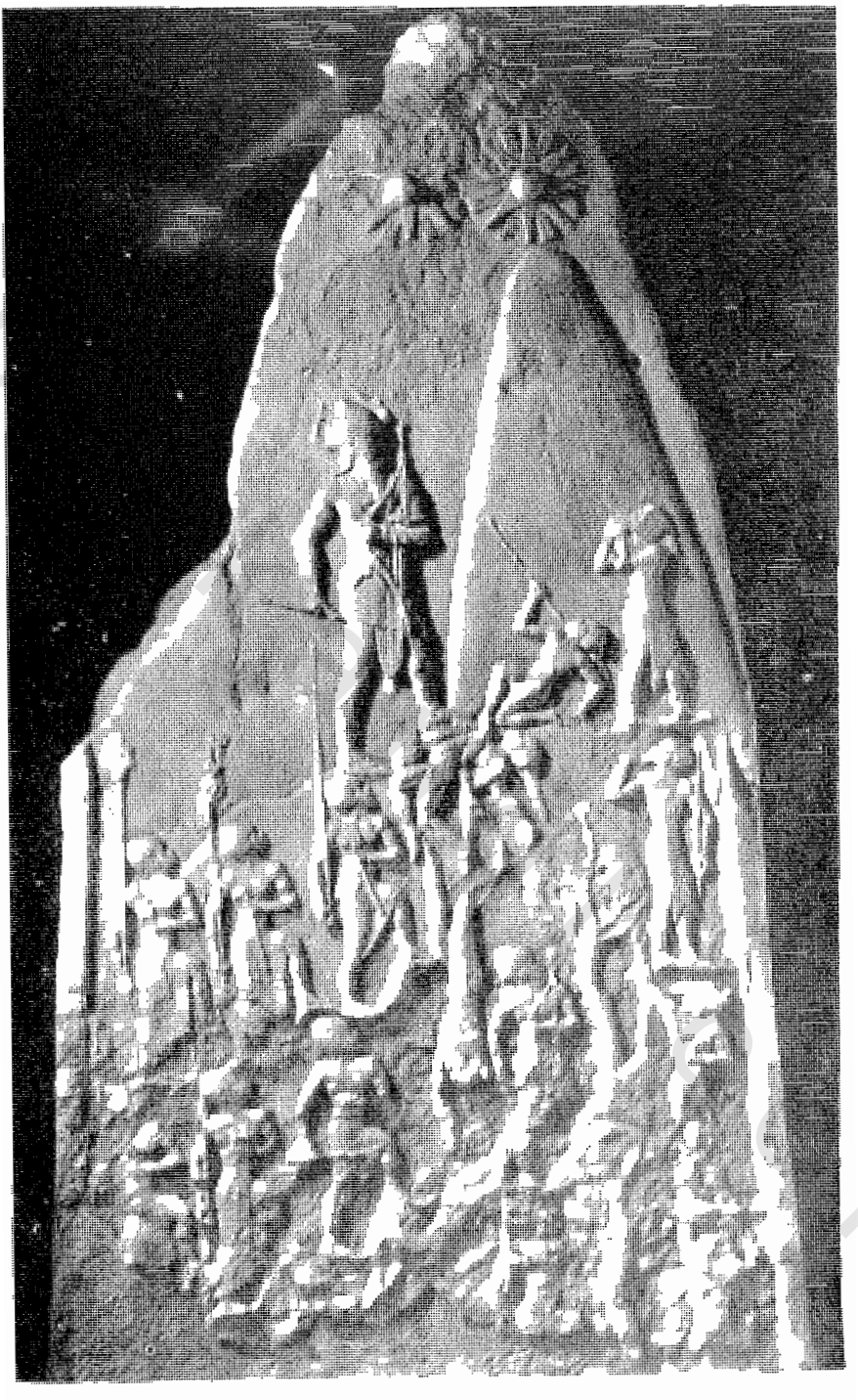

١٨ — نصب نصر لنـــارام سين ، ملك أغادي (القرن السادس والعشرون قبل المسيح) . متحف اللوفر .

١٩ – سومريو لاغاش ، بقيادة ملكهم ايناتوم ، يدوسون الجثث في سيرهم الى المعركة (القرن الثامن والعشرون قبل المسيح) . متحف اللوفر .

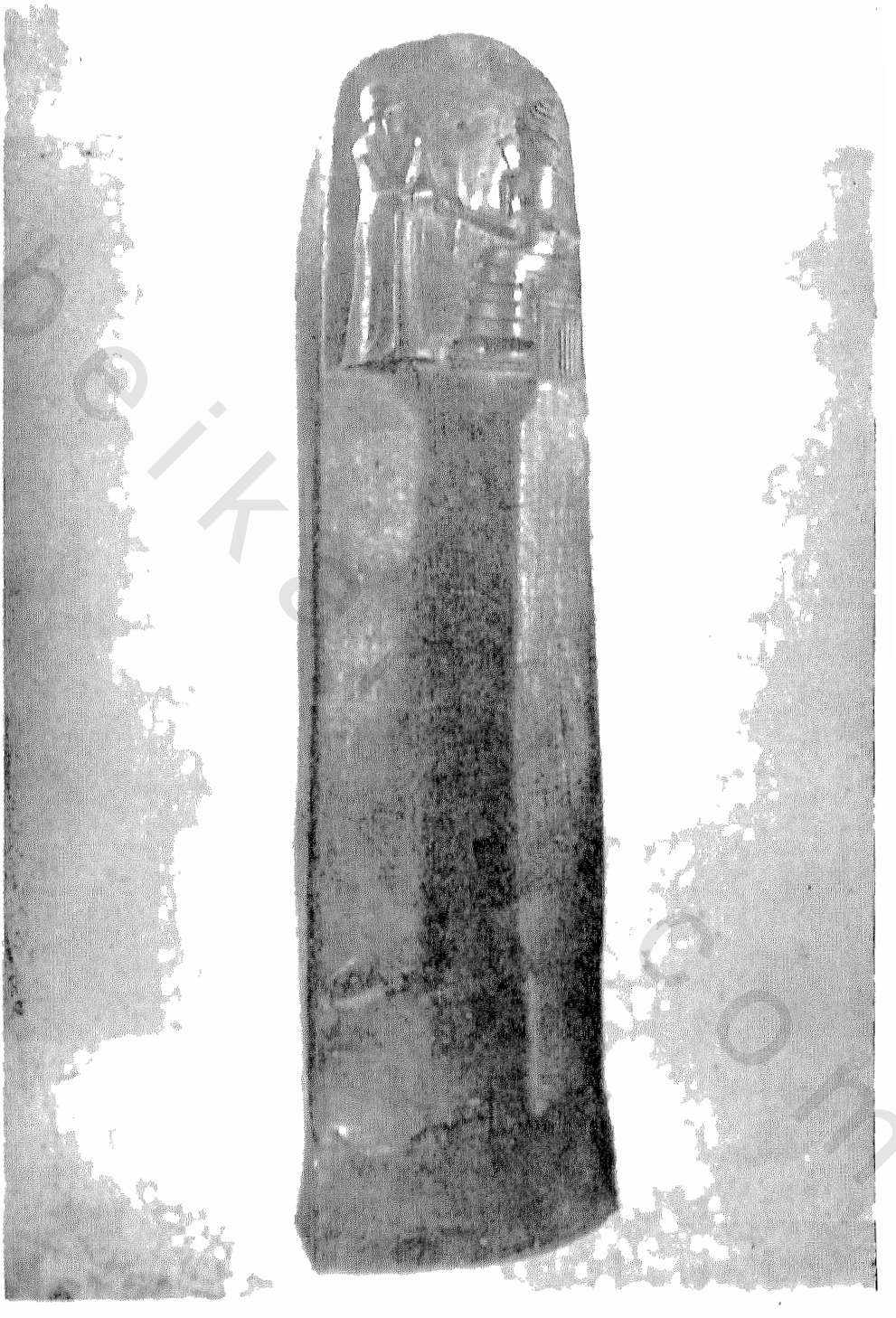

٣٠ - دستور حمورابي ، ملك بابل (حوالي ١٨٠٠ (؟) قبل المسيح) . متحف اللوفر .

٢١ ـ كودورو بابلي . الملك مليشيباك الثاني يضع ابنته تحت حمـــاية احدى الآلهات (حوالي ١٢٠٠ قبل المسيح) . متحف اللوفر .

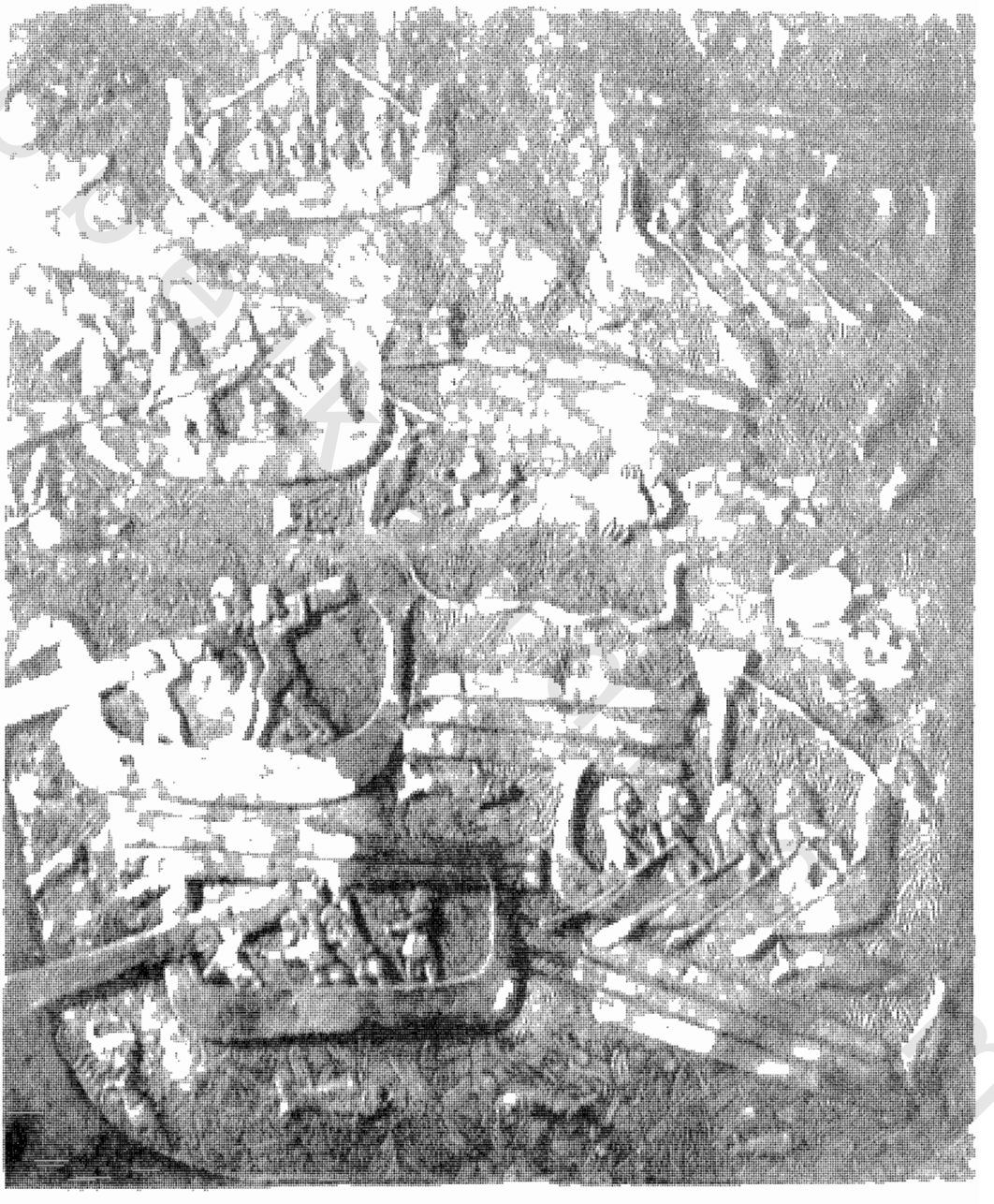

٢٢ النقل البحري . نقش نافوه من الابستر مصدره
قصر خرسباد (القرن الثامن قبل المسيح) . متحف اللوفر .

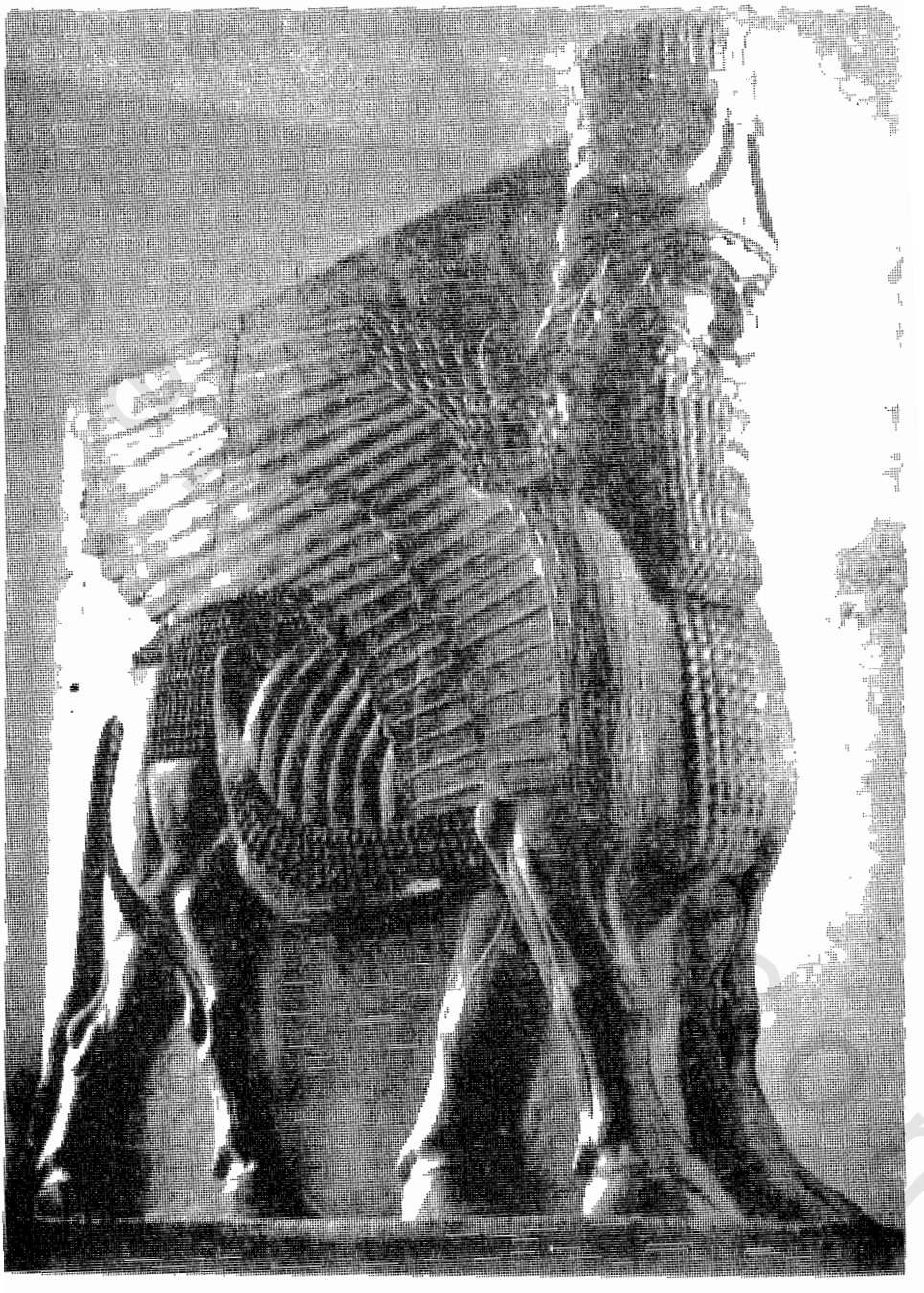

٢٣ ثور مجنح ذو وجه بشري مصدره قصر سرجون الثاني في خرسباد (القرن الثـــامن قبل المسيح) . متحف اللوفر

٢٤ – الملك اشوربانيبال في عربة أبهـــة . نقش ناتىء
مصدره نينوي (القرن السابع قبل المسيح) .

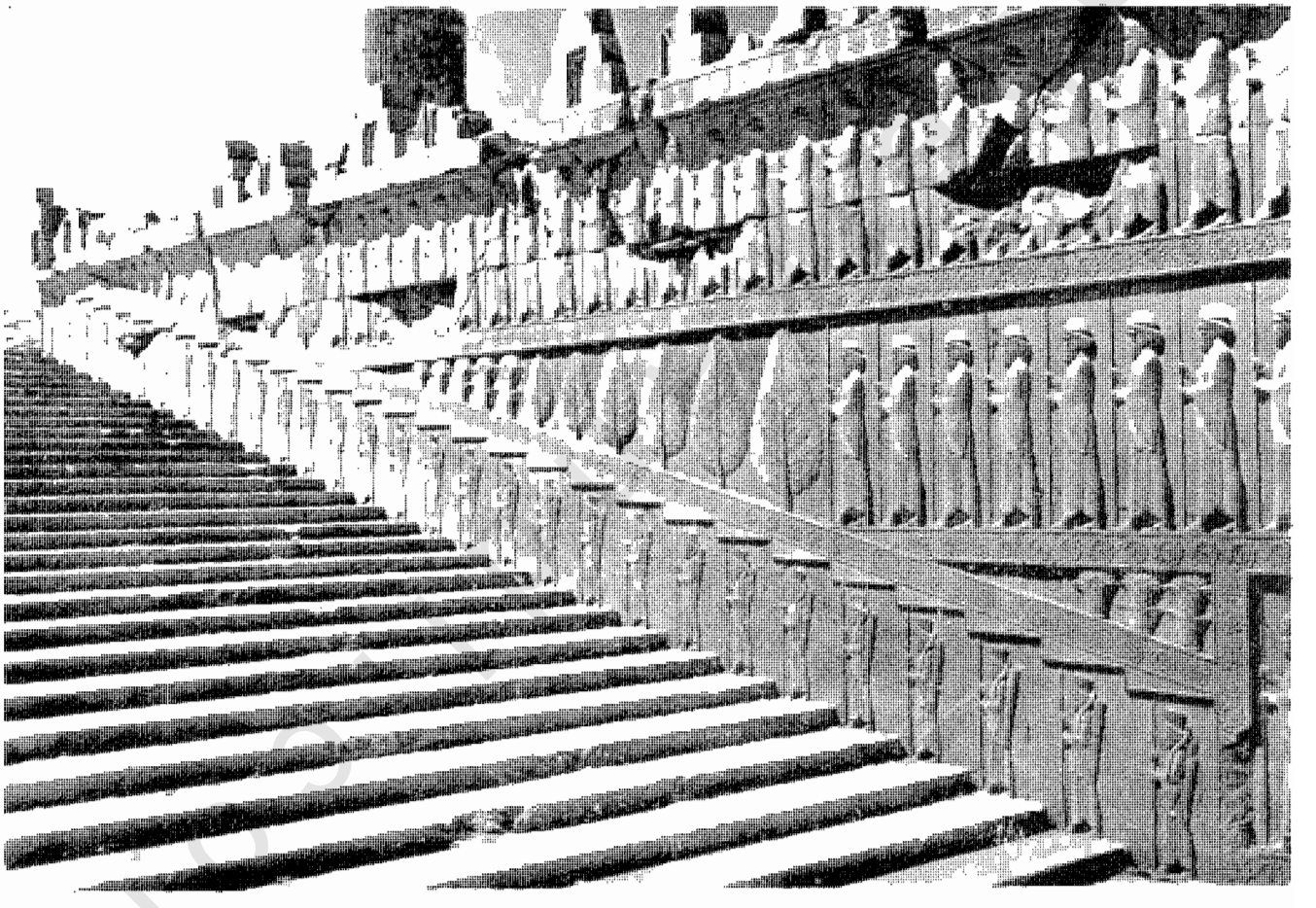

٢٥ – نقش في الابادانا في برسبوليس (القرن الخامس قبل المسيح) .

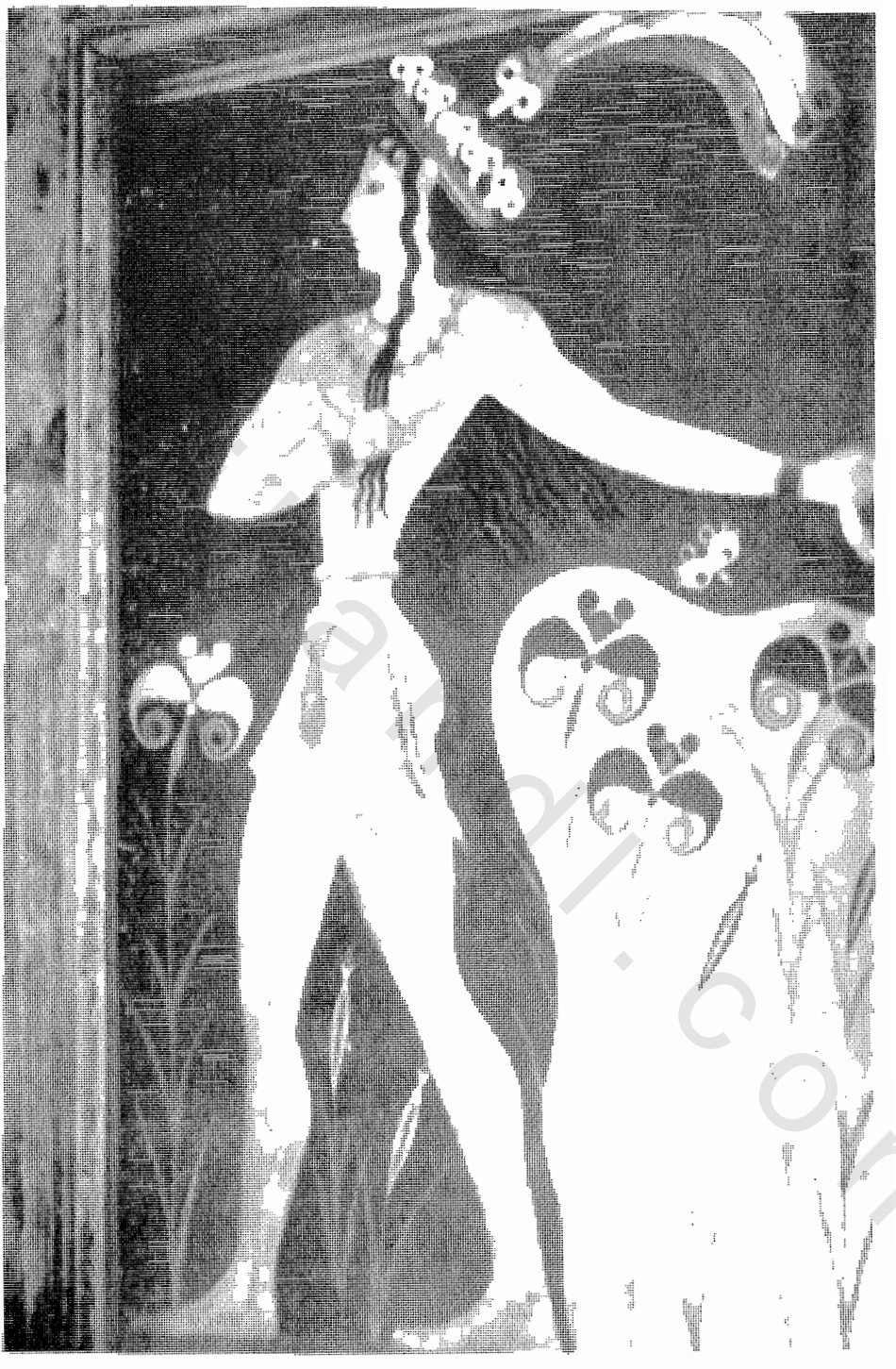

٢٦ « الملك الكاهن » أو « الأمير ذو زهور الزنبق » في كنوسوس ، كريت . . نقش جصي ملون ، بعد ترميمه ، حوالي ١٦٠٠ قبل المسيح . .

٢٧ – باب اللبؤات في ميسين .

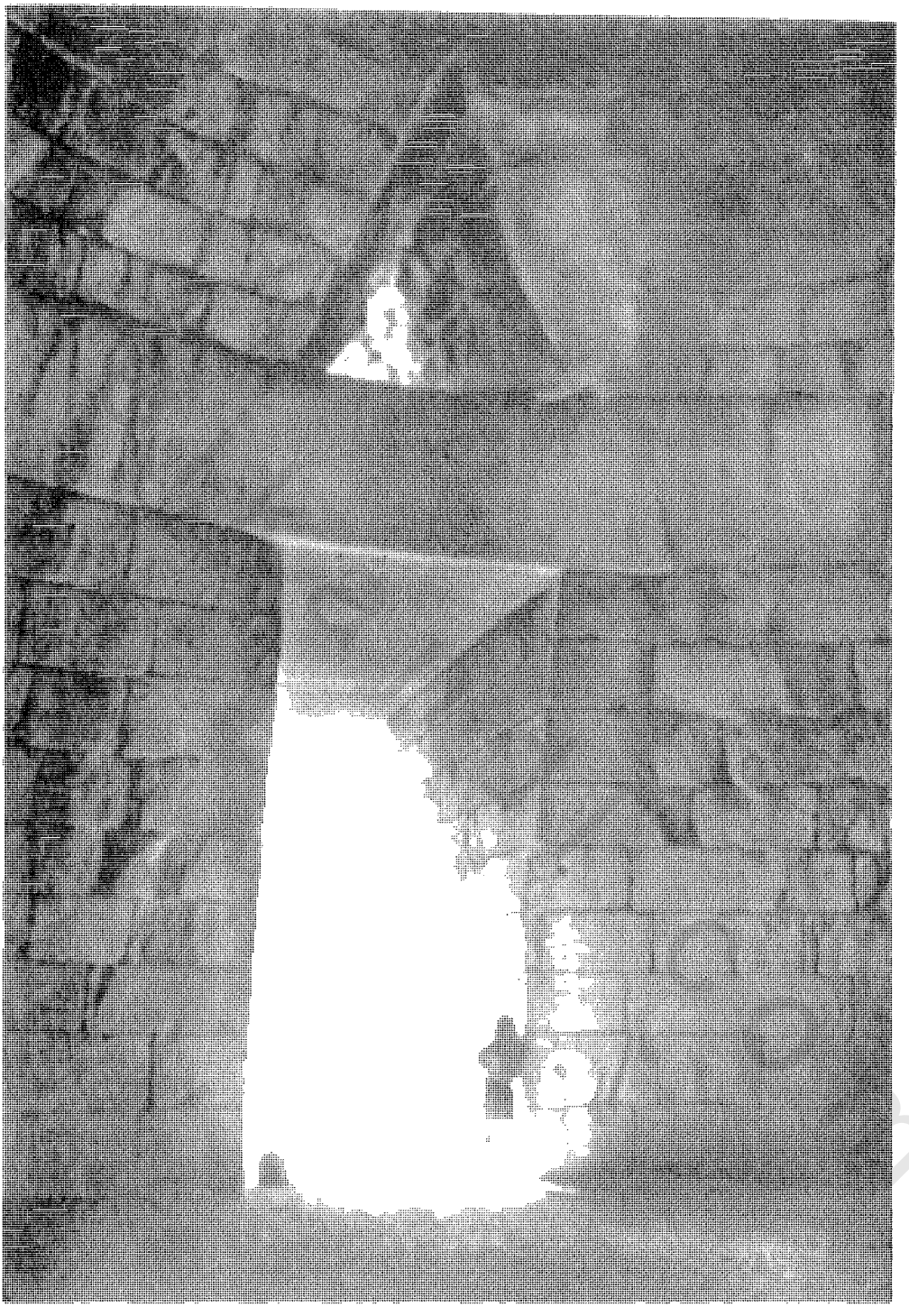

٢٨ - صخرة أتريا في مصر

۲۹ – الپرناس گاہ ری من زیمبون .

٣٠ – عنـــد لحف حصون ارغوس . في المؤخرة أكمة لاريسا ٣٠٠ م . في المقدمة أكمة سيس ٨٠ م .

٣١ طريق اللبوءات في ليبدون ديلوس ، القرن السابع
قبل المسيح ، .

٣٢ – مشهد وليمة هيراكليس عند افريتيوس . رسم ذو طابع كورنثي (القرن السادس قبل المسيح) . متحف اللوفر .

تشتق من اللغـــات الشرقية ، والاغريق يعتبرون جيغيس الليدي المستبد الاول لانه كان أول ملك غير شرعي . ويبدو ان بعض مدن آسيا الصغرى لقنت العالم اليوناني امثولة اللجوء الى الاستبداد . وكان هنـــالك مستبدون يدعمهم أو يفرضهم الاجانب : الملوك الليديون وداريوس الاخميني . وتسلم غيرهم السلطة في صقليا او رسخوا اقدامهم فيها، باستثمار تهديد العدو الخارجي للمدينة . ويحملنا كل ذلك على الاعتـــقاد بان نظام الاستبداد يحمل طابعاً غريباً عن الذهنية اليونانية . فان هذا النظام ، في الواقع ، يتناقض ومفهوم المدينة نفسه القائم على مبدأ المساواة بين مواطنين احرار لا فرق بينهم إلا في المقيـاس الوصفي ، وبالتالي في العدد . وهذه النزعة ، الملموسة حتى في الارستوقراطية ، قد افضت من قبل الى زوال الملكية . ولكن مهما يكن نصيب هذه الملاحظات من الصحة ، فان امتداد نظام الاستبداد ونجاحه يميزان ، مع ذلك ، القسم الثاني من العهد القديم ، أي من منتصف القرن السابع تقريباً حتى نهاية القرن السادس . ولا شك ، والحالة هذه ، في ان الاستبداد قد قابل واقعاً داخلياً لم يستطع الاغريق انكاره .

لقد برز في كل مجتمع وفي كل زمان رجال استسلموا لطموحهم نحو السلطة وشغفهم الفطري بها وتحلّوا بقوّة الجاذب والسحر الضروريين لاستمالة الانصار المتحمسين . وان المجتمعات الشرقية نفسها قد عرفت الاغتصابات من قبل . ونحن نرجح ان عددها قد يرتفع كثيراً لو قدّر لنـا ان نعرف تاريخ هذه المجتمعات معرفة أعم وأوفى . ولكن الرجال فيها راقبتهم السلطة عن كثب وحالت دون طموحهم وتحمسهم . وقد قامت فيها ايضاً صلة بين الالوهة والسلطة ، مما حمى هذه من المغامرات الجريئة . أما في اليونان فقد احرزت نجاحات اكثر عدداً ، مما يثبت وجود نزعات فردية اعمق منها في الشعوب الاخرى التي لعبت دورها حتى ذاك التاريخ . فالحضارة اليونانية هي الاولى التي استساغت فكرة « الانسان المتفوق » الذي يفضل معاصريه مهارة وسعادة . قد يثير هذا القول دهشة وعجباً ، لأن الرأي السائد هو ان الحضارة اليونانية لا تتميز عن حضارة العهد الكلاسيكي الذي توصل الى حجب هذه الفكرة . ولكنهـــا حجبتها حجباً فحسب دون ان تزيلها . فقد ظلت هذه الفكرة كامنة في الحضارة اليونانية ثم ظهرت مرة اخرى ، بقوة نادرة ، في الحضارة الهلينية . ومن حيث انها قد برزت من قبل في العهد القديم ، فلا ريب في انها انطوت على فردية عميقة الجذور في السيكولوجية اليونانية .

منهجية الاستبداد وعمله

وكانت الظروف ، على كل حال ، مؤاتية جداً حينذاك . فالاضطرابات السياسية والاجتماعية اتاحت لذوي الحزم ان يبرزوا في صراع الاحزاب . فأفادوا في آن واحد من عياء المعتدلين ومخاوفهم ومن غرارة الطبقات الاجتماعية الدنيـــا في السياسة . وكانوا ينتمون في الغالب الى الارستوقراطية . ولكن الارستوقراطية ، المتحرزة والمتريبة ، لم تكن لتساندهم بكليتها ولمدة طويلة . ولذلك فهم لم يتبنوا احقادها ، مؤثرين على نقيض ذلك ، التعرّض لعدائها ، باستثناء فترات تقارب قصيرة الامد فرضتهـــا عليهم الانتهازية . وقد اعوزهم

العطف الشعبي للاستقرار في الحكم الذي عنى ، عملياً ، استلامهم القلعة والعيش فيهـــا محاطين بحرس من المرتزقة . فليس من النادر اذن ان يكونوا تزعموا الحزب الثوري قبل تولي الاحكام . ولكنهم ، اذا ما استقرت الاحوال ، يظهرون ، بالتفضيل ، بمظهر المحكّمين المصلحين ، رغبة في طمأنة المعتدلين . فينزعون السلاح من ايدي المعتسفين ، ويحرصون ، ما امكن الحرص ، على العمل بموجبات الدستور ، ويقتصرون ، بالاستناد الى نفوذهم الشخصي والى نفر من الرجـــال المخلصين ، على القيام بمراقبة فعالة لحسن سير كافة الاجهزة السياسية . وقد سعوا ، في الحقـــل الاجتماعي ، وراء معالجة اكثر الآفات ظهوراً ، بفضل حجز ممتلكات خصومهم العنيدين ، اي بعض اسر الاشراف . ولكنهم يكتفون باعتماد التدابير الجزئية التي تخدم انصارهم قبل غيرهم . اما البرنامج الثوري فقد لفه النسيان . فالالغاء الوحيد للديون الذي وصلت الينا اخباره — ولعله مجرّد تخفيف عن طريق اسقاط قيمة النقد — لم ينهض به مستبد ، بل مشترع يوناني هو صولون . اما اعادة توزيع الاراضي بصورة شاملة ، فلم يجرؤ احد ، لا مشترع ولا مستبد ، على التوغـــل فيها . لذلك فان الانتهازية والمصلحة الشخصية هما اللتان سيّرتا عمل المستبدين . وبالتـــالي ، ارتبط هذا العمل بصفتهم الفردية وبالظروف المحليـــة . ولكن القوى المتشابهـــة التي واجهوها املت عليهم مواقف مشتركة .

كان لبعض هذه المواقف اثر حاسم في تطور الحضارة اليونانيـــة . ففرّج المستبدون الكربة عن صغار الفلاحين وجعلوهم اكثر استقلالاً حيال ذوي الامـــلاك الواسعة في جوارهم ورفعوا مستوى حياتهم المادية . واذا ما استندنا ، في حكمنا ، على اثينا ، نرى ان هذه النتيجة الاخيرة قد احرزت بفضل تشجيع زراعة بعض الاشجار المثمرة ، كالكرمـــة والزيتون ، التي ثبت ان انتاجها ، في هذا المناخ ، افضل من انتاج الحبوب . وكان صولون ، قبل « بيسيستراتوس » ، قد وجه الزراعة ، في منطقة اثينـــا ، شطر هذه الناحيـــة . ثم جاء بيسيستراتوس وسلك الطريق نفسها ، حتى انه سلّف المالكين الصغار بعض الاموال . وقد توصل المستبدون ، في المدن ، الى التوفيق بين نزعتهم الى النفوذ الشخصي وبين تصميمهم على تهدئة من خابت آمالهم بايجـــاد العمل لهم . ولذلك نراهم يتعهدون بلاطاً بهجاً ، ويحمون الادباء والفنانـــين ، وينمون الاعياد الدينية ، ويحققون الاعمال الكبيرة في البناء والتجهيز ، ويدعمون التوسع الاقتصادي .

اجل ، لم يفلح احد منهم في تأسيس سلالة تدوم طويلاً ، في حال انهم ، ولا ريب في ذلك ، قد استهدفوا هذا المطلب . فلم تتجاوز اسرة واحدة من اسرهم الجيل الثالث ، حتى في افضـــل الظروف مؤاتاة . وقد كان لانهيارهم اسباب متنوعة ، عرضية او خارجية في اكثر الاحيان . بيد ان هذا الانهيار قد وافق تياراً عاماً : ففي السنة ٥١٠ لم يبق مستبـــد واحد في اليونان البلقانية ، كما زال المستبدون الاخيرون ، في صقليا ، بعد ذلك بحوالي خمسين سنة . وقد اصدر عليهم الحكام والفلاسفة احكاماً قاسية . وقد وسم فلاسفـــة الاخلاقيات كلمة «مستبد» بمدلول

ازدرائي ، بينما لم يميزها من قبل ، اذا وجد التمييز ، عن كلمة «الملك» ، سوى فكرة الاغتصاب. فدلّت في النهاية ، على الحاكم الفرد الذي يعتمد العنف ويحتقر القـــانون ، على نقيض من لا يستهدف سوى الخير العام والعدالة .

ولكن الاستبداد سواء كان شجبه مشروعاً ام لا ، قد افضى ، حيثما وجد ، الى الاسراع في تطوير المدينة نحو نظم سياسية واجتماعية لن يلبث المستقبل القريب والبعيد ، ان يعممها ايضاً .

الوضع في آخر العهد القديم

لم تزل النظم في آخر القرن السادس متنوعة جداً.

ولكن يجب ان نستثني سبارطة . فهي ، وان كانت نقطة الانطلاق فيها مماثلة لما في سواها ، — وهذا غير محتمل — قد عرفت تطوراً خاصـــاً جداً . وهي تفتخر بتميزها الذي لا مراء فيه . اجل نحن نرى في كريت اثراً لنظمها الاجتماعيـة ، لا سيما تلك التي تولي الدولة حق المراقبة على تربية وحياة مواطنيها الجنود . ولا يتنـافى مبدأ هذا الحق ومبدأ المدينة اليونانية بوجه عام . ولكن استخدامه في سبارطة قد ارتدى طابعاً من العنف يضفي على هذه المدينة مظهراً فريداً .

ففي كل مكان آخر تترك الدولة ، كدولة ، حرية أوسع للمواطنين . ولكن الا يخضع هؤلاء لتأثيرات قوى اخرى ولضغط الجماعات التي ينتمون اليها لاعتبارات اخرى غير صفتهم كمواطنين؟ ثم من هي الدولة ومن هي الطبقة الاجتماعية التي تستطيع اخضاعها لنفوذها المسيطر ؟ ان محاولة الاجابة عن هذين السؤالين تضعنا وجهاً لوجه امام آراء مختلفة تكاد لا تحصى ، ولكننـا نتراءى منذ الآن اتجاه التطور المقبل .

لا يزال عدد من المدن محتفظاً بحياة ريفية بحتة ، بعضها على الطراز القديم يتحكم بها اشراف مقتدرون ، وبعضها الآخر تعيش فيها طبقة من الفلاحين تتمتع بقسط من الحرية أوفر . فحيثما تطور الاقتصاد ونمت الصناعة والتجارة ، تعذر على ارستوقراطية النسب ان تبقي على امتيازاتها القديمة وتوجّب عليها رفع عدد المحظيين . وقد اقدمت على ذلك إما اختياراً وإما قسراً . ولكن هذا التوسيع كان متفاوتاً ، فلم يستفد منه ، تارة ، إلا ذوو الثروات المنقولة ، فانضموا منذ ذاك الى الاشراف ووقفوا الى جانبهم في وجه مطالبات الطبقات الشعبية . ففي ميله *Milet* مثلاً ، وطيلة ستين سنة في أول القرن السادس ، اصطدمت فئة « اولئك الذين يحاربون بايديهم » — أي الفقراء العاجزون عن شراء السلاح — بفئة «الثروة» أو « أولئك الذين يركبون البحر دائماً » أي مجهزي المراكب . وقد اشرك ، تارة اخرى ، اعضاء الطبقة الوسطى في الحقوق السياسية . وقد مارس الفقراء انفسهم ، احياناً ، بعض هذه الحقوق ، واننا نشاهد ، اذ ذاك ، قيـام مؤسسات تنفرد بها الانظمة الديموقراطية ، في كيتوس مثلاً منذ السنة ٦٠٠ قبل المسيح ، وفي أثينا بعد ذلك بزمن قصير.

تقدم أثينا

خلال القرن السادس ، برزت اثينا ، في الواقع ، بروزاً ملموساً . وليس هـــذا التأكيد نوعاً من تقدير الشيء بعد حصوله أو وهماً جرتنا اليه وفرة نسبيـــة في

المعلومات . فقد بدأ التطور فيهـــا بعد مدن كثيرة غيرها ، ولم يتحرك شيء فيها ، على هذا الصعيد ، قبل السنوات الاخيرة من القرن السابع . ولكن الحركة فيها كانت اكثر عمقاً وسرعة ، فحققت في قرن واحد نتائج أهم منها في أي مكان آخر .

تبدّل الاقتصاد في الدرجة الاولى . فتكونت طبقة ثابتة الاركان ومستقلة اقتصادياً قوامها فلاحون من اوساط الناس ينتجون غذاءهم ويبيعون النبيذ والزيت والثمار والبقول . وفي اسواق حوض البحر المتوسط ، احتلت صناعة خزفيات اثينا المركز الاول . وسبق ذلك ان مخر البحر اسطول تجاري . وضرب النقد بوفرة ، منذ ذاك التاريخ ، واكتسب شهرة طيبة برّرتها قانونية ورنه وارتفاع عيـاره من الفضة . ثم ان تقهقر المدن اليونانية في آسيا الصغرى ، على اثر الفتح الفارسي ، الذي أصبح امراً مفعولاً بعد ان قمع داريوس الاول ثورتهم ، قد افسح مكاناً أخذت اثينا تحتله ، على صعيدي التجارة في البحر الايجي والعلائق ببلدان البحر الاسود ومصر والغرب. واذا لم تبسط بعد سيطرتها الاقتصادية ، فان انطلاقتها قد برزت منذ الآن .

ورافق هذا التطور الاقتصادي تطور اجتماعي وسياسي . فمنذ السنة ٦٢١ حتى السنة ٥٠٦ ، كانت شرائع « دراكون » و « صولون » ، واستبـــداد بيسيستراتوس وأولاده ، وشرائع « كليستين » ، بمثابة اوتاد رُسمت بها بسرعة طريق طويلة تتراءى في آخرهـــا امكانات وآفاق كلّية الجدّة . ومما هو اهم من ايجاد بعض الاجهزة السياسية ، ان يحضّر المجال القانوني والاجتماعي للديموقراطية كما سيفهمها الاغريق. ولم يُقص الأشراف عن السلطة ، بل انهم سيقدّمون لاثينا ، طيلة سبعين سنة بعد ذلك ، خيرة حكامها : ميلتيادس وتيمستوكلس واريستيدس وكيمون وبريكليس نفسه . ولكننا نعتقد ، على قدر امكانية الحكم في هذه الامور ، انهم مدينون بتولي السلطة الى صفاتهم الشخصية قبل كل شيء آخر . ولعله يجوز الاستنتاج ، حيـال هذه القضية ، ان الشرائع تقدمت الاعراف والتقـاليد ، لان الشرائع لم تكرّس سلطة الاشراف قط ، واذا تبقى هنالك من امتيازات ، فانما هي امتيازات واقعية فحسب ، وليست بعد امتيازات قانونية. وهكذا فقد شقت الطريق لارتقاء طبقات اجتماعية جديدة تتولى ادارة الدولة وسيرمز الى هذا الارتقاء بعد موت بريكليس مباشرة ، اسم الدبّاغ كليون .

وقام ايضاً ، منذ دراكون ، قضاء جنائي رسمي . ثم جاء صولون فتبسّط فيه . وبالاضافة الى ذلك اعطى صولون حق الشهادة لمن لم يرزق ولداً شرعياً ، وشجع تجزئة الثروات العقارية ، وحظّر المظاهرات الصاخبة في الجنائز . وحقق كليستين اخـيراً الاصلاح الحاسم بان اوجد ، بموازاة توزيع المواطنين القديم المبني على النسب ، سلسلة جديدة من الفئـــات البشرية على أساس اقليمي : عشر قبائل ومائة « ديموس » تقريباً . ولم تعتمد الدولة الاثينية ، بعد ذلك ، في تأليف كافة اجهزة الحياة السياسية ، سوى التقسيم الكليستيني .

لقد اوحى هذه التدابير كلها تصميم واحد : انتزاع الدولة من قبضة العائلات الكبيرة بالانتقاص

المنظم المرسوم من امتيازاتها وتلاحمها الداخلي. فوسعت الدولة سلطاتها على حساب هذه العائلات، لا سيما بانشاء القضاء والجيش، والاسطول بعد ذلك، فلم تعد الدولة حرماً لها. ولكن الطريقة التي سير عليها لتحقيق هذا التحرير قامت — ولم يكن بالامكان ان تقوم على غير ذلك — على تحرير الفرد من تضامنه الوثيق مع الفئة التي ادخله نسبه فيها. وقد هدفت الدولة، من وراء ذلك، الى ان تجعل من الانسان مواطناً لا عضواً من اعضاء العائلة. ولعل ما يجب معرفته، بعد ان ساعدته على امتلاك هذه الحرية، هو ما اذا كانت ستجيز له استخدامها على هواه او ستحاول قيادته وتوجيهه او ستنوء عليه بسلطتها. ولكن طرح هذا السؤال سابق لأوانه. فالشيء المهم الآن هو حقيقة تحرير مزدوج يبدو مظهراه المترابطان كنتيجة لتطور واحد: تقهقر التوزيع الاجتماعي القديم.

وتجدر الاشارة هنا الى ان الشطر الاكبر من هذا التطور قد تحقق في اثينا منذ الآن، ويكفي الاستمرار فيه دون التهرب من ذيوله. وقد قدمت اثينا، في عملها هذا، مثلاً ستسير عليه كافة المدن اليونانية. وسيكون لسحر مثلها قوة لا تقاوم، لا سيما وان اثينا، في القرن التالي، ستنمي قوتها العسكرية والسياسية وستحتل، في الوقت نفسه، المرتبة الاولى على صعيد الفكر والجمال حيث تكتفي الآن بان تبقى مع سواها على مستوى واحد.

٢ — التطور الادبي

لم يكن التطور الادبي في العالم اليوناني، طوال هذا العهد اقل عمقاً او اقل تحضيراً للمستقبل. ولكنه يبدو اكثر تعقيداً، في اسبابه وخطوطه العامة والاشكال التي اتخذها، من التطور الزمني.

عوامل التطور الادبي

لعب النمو الاقتصادي دوره بفعل الثروة التي وفرها والصلات التي اوجدها او وثقها بحضارات اخرى لا سيما الحضارات الشرقية. وكان محتوماً على الحضارة اليونانية التي هي آخر ما جاء الى حوض المتوسط الشرقي ان تفيد من الاختبارات والتحقيقات التي كدستها حضارات ارسخ منها قدما وأوفر ثروة واسبق فناً وتقنية. فاقتبست عنها الكثير مما سبق واشرنا اليه. ولا حاجة بنا الآن لان نجمع هذه الاقتباسات في لائحة طويلة كي ندلل على اهمية مجموعها. وقد درج المؤرخون منذ زمن بعيد على الانتقاص من مدلول القول المشهور «الاعجوبة اليونانية» بحصر هذا المدلول في تأويل الاغريق لما تسلموه من الغير، وقد يمتنع بعضهم عن استعمال هذا التعبير اطلاقاً.

ولكن هذا لا يعني وجوب التسليم لسراب الشرق، لان الشعب اليوناني، في اعماقه، غني بالامكانات المميزة التي يمكن التعرف الى القسط الذي ادته دونما عناء. فليست الارستوقراطية القديمة، كما رأينا، لمامة من الاجلاف، بل هي تستهدف بلوغ مثل اعلى في الحياة الفكرية والفنية تدرجت نحوه، مع الزمن، طبقات اجتماعية كثيرة. وقد اثبت المستبدون انفسهم، باهتمامهم لنفوذ بلاطاتهم ومدنهم، انهم استهدفوا بلوغ هذا المثل ايضاً. لا شك في انهم اقتدوا

بالسلاطين الشرقيين ، لا سيما الليديين ، اقرب الملوك في الزمان والمكان ، الى العالم اليوناني الذي عرفهم معرفة تامة دون غيرهم . ولكنهم صمموا ايضاً على ان يتفوقوا ، ببهاء وجلال حياتهم ، على اشهر الارستوقراطيين ثروة وسخاء ، متبنين على غرارهم ، المثل الهوميروسي الاعلى الذي يجعل منهم «رضعاء زفس» يملكون قصوراً غاية في الزخرف ويحسنون وفادة الشعراء المغنين . ثم اذا نظرنا الى الشعب اليوناني كمجموع ، توجب علينا الاعتراف ، بما يتحلى به من جرأة فكرية ورغبة دائمة في الاستطلاع واهلية لخلق كل جديد ومن ضن بالاحترام المتطير للتقاليد . ويمكننا رؤية هذه الحرية الفكرية في التقلبات التي طرأت على تنظيمه الاجتماعي والسياسي . وهو لم يتوان عن التجديد حتى في النطاق الديني الذي يتصف بالجمود اكثر من غيره .

ولكن هل كانت الذهنية اليونانية واحدة يا ترى؟ يغرينا جداً ان نرى فيها نزعتين متزاحمتين : الاولى ذات منطق بسيط سليم وتفكير رصين متناسق ، والثانية ذات جمال يدغدغ بتأثيره الحواس والشهوانية . فلا مراء في ان هاتين النزعتين ، الاولى والثانية ، موجودتان في الحضارة اليونانية . ولكن غالباً ما جعل المؤرخون من تراجعها الصفة المميزة للعهد القديم ، وهو عهد تأسيس وتلمس وتردد ؛ فقابلوا القساوة الحازمة البارزة في التيار «الدوري» بالسحر الحلال والطلاوة النسائية في التيار «الايوني» ، الى ان جاءت اثينا ، في فجر العهد الكلاسيكي ، وحققت جمعهما في تيار واحد . لا ريب في ان تأثير الشرق الذي استهوى الاغريق بثبات يوضح خطوطاً كثيرة في التيار الايوني . ولا ريب ايضاً في ان الكلام عن هذا التمييز انما يصح عن الفن خصوصاً ويستلزم بعض التبسيط . فالمدينة الدورية الاولى ، سبارطة ، قد تأثرت الى حد بعيد بجاذب الشرق ، خلال فترة طويلة على الاقل . اما ايونيا الاسيوية ، فاذا صح ان فنها ينم عن رغبة في الافتتان المتأنق ، فقد كان لها فلاسفتها وعلماؤها . لذلك لا يجوز الكلام عن «الايونية» «والدورية» إلا بكل حكمة ، اذ ان الاولى والثانية ، على كل حال ، لا تمثلان بالضبط النزعتين اللتين ستظهران بوضوح ، في عهد لاحق ، في تطور الحضارة اليونانية .

التنوع الديني

تبدو الديانة كعنصر وحدة في العالم اليوناني المقسم مدناً عديدة . ولكن الآلهة الذين عبدتهم ينتسبون الى مصادر مختلفة . فبعضهم استوردهم الهنود الاوربيون : آلهة السماء مثلاً ، ولا سيما زفس ، إله النور والزوبعة . وتجمع البعض الآخر من الارث الايجي : آلهة الارض ، كأثينا وديميتر . وجاء غيرهم اخيراً من الخارج : من اسيا كأفروديت ، أو من تراقيا كأريس أو ديونيسوس . ومن العسير غالباً تبيان هذا المنشأ لان هذه العناصر قد اختلطت ببعضها اختلاطاً غريباً . فقد احتفظ احياناً بذكر حدث اختصاص ، وهكذا فان ابولون الذي جاء من آسيا قد وضع يده على معبد « دلفي » المكرس للآلهة الكريتية العظيمة . واعتُمد الصهر احياناً اخرى ، اما باعتماد اوجه الشبه في اختصاصات الآلهة واما بطريقة اكثر بساطة تقضي بان تعزى للاله الواحد خاصيات آلهة مختلفين : وهكذا فان الحصان يشير الى الإله الشمالي في بوزايدون ، بينما يشير الخطاف الثلاثي الشوكات والسلطة على البحر الى

الإله الجنوبي . ووزع الآلهة اخيراً عائلات مختلفة هي نفسها معقدة التركيب . وقد تم كل هذا العمل في الوقت نفسه الذي تكوّن فيه الشعب اليوناني ، فلا نعرفه ، اذن ، إلا بواسطة نتائجه . وقد اكتمل في اوائل القرن الثامن ، حيث انتصر تشبيه الآلهة بالانسان ايضاً ، فلم يبق للأصنام والحيوانات ، الى جانب الآلهة ، سوى قيمة الرموز أو الخاصيات .

تتضح اذن حقيقة مجهود قديم مثمر استمر في العهود اللاحقة، فيرى هيرودوتس ان الشاعرين القديمين هوميروس وهيزيود ، قد « حدّدا نسب آلهة الاغريق ، ووزعا عليهم صفاتهم وخصوا كلاً منهم بامجاده وصلاحياته ، ورسموا صورهم » . وفي الواقع كان للشعراء اثر بعيد في الديانة اليونانية . فإليهم يعود الفضل في انهم اختاروا ، من الكثرة الاولى ، آلهة كباراً يحملون اسماء عالمية الشهرة ، ويتحلون بشخصيات مميزة ، ولهم عائلتهم وتاريخهم ، وانتظموا مجتمعاً على غرار المجتمع البشري . وقد ذهب هيزيود الى ابعد من ذلك ، بانقطاعه عن ادخال الآلهة مباشرة في اوساط البشر ، وبالتشديد على دورهم كحراس للآداب، وحتى بتأليه بعض التجريدات الادبية كالعدالة (ديكي) والمنافسة (ايريس) ؛ وغالباً ما كانت هذه الشؤون غريبة عن القصائد الهوميروسية .

ولكن هذا المجهود لم يكلَّل قط بالنجاح التام . فكان في الواقع لكل معبد إلهه الخاص به المتميز باحد الفوارق او احد النعوت او احدى الاساطير المحلية . وقد ارتضى المؤمن بهذا التمييز البالغ لانه يطلب عوناً واضحاً مادياً جداً . وقد بقي دائماً للطقوس نصيبها الهام ايضاً . فنرى، والحالة هذه ، ان نقل الديانة الى الصعيد الروحي كان وقفاً على نخبة فحسب .

الطقوس مكونة الوحدة : المباريات

لماذا احرزت بعض هذه الطقوس مزيداً من النجاح وصادفت قبولاً وتأييداً ؟ ان تضامن الشعب بكليته قد اتضح اخيراً بالاشتراك في الاحتفالات العامة . وهذا التضامن ابعد من ان يكون شاملاً منذ البداية ، لا بل نحن نستطيع تتبع تدرجه الصاعد من خلال اتساع هذه الاحتفالات نفسه . ولكن ، من حيث ان التضامن السياسي المقابل لم يحرز اي نجاح ، يتوجب علينا الاعتقاد بان طبيعة هذه الاحتفالات استجابت لميل عميق في النفوس .

وانما المقصود هنا الالعاب الموروثة فكرتها ، دونما ريب ، عن الكريتيين . ولكننا نرى بجلاء ان نجاحها يتفق والمثال الاعلى للانسان كما تراءى للاذواق الارستوقراطية . فهو يدعو كلّ فرد لان ينمي في شخصه ما يمكن ان يميزه عن غيره . وانما اللعب مباراة تتجلى فيها صفات الفرد وتفوقه على امثاله . ولكن ما يلفت النظر هوتلك المشاعر والفكَرالتي تلابس هذه الفردية وتحد من نتائجها . فهنالك الفكرة الدينية اولاً : يقدم المتبارون مجهودهم قرابين للاله الذي يعين من يتقبل قربانه بالرضى ، بايلائه النصر المبين . وهنالك ايضاً الفكرة الاخلاقية المرتبطة بالاولى : فالإبعاد يصيب الخدّاع وخارق القدسيات والقاتل؛ اما المكافأة ، وهي تاج من اوراق الشجر ،

ليس لها من قيمة مادية . وهنالك اخيراً فكرة المدينة : فهي تذيع الى جانب اسم المنتصر ، سم وطنه ، وتفسر الاكرام الذي ينال المواطن من وطن يقاسمه مجده .

نحن نجهل كل شيء عن كيفية تكوّن هذه الفكر وهذه المشاعر . ولا نرى سوى توسع اطار هذه المباريات المطرد . فان اشهرها واقدمها ، على الاطلاق ، مباريات اولمبيا التي جرت كل اربع سنوات في واد صغير الى الشمال الغربي من البلوبونيز ، اكراماً لزفس الاولمبي . ولعلّها تقررت للمرة الاولى في السنة ٧٧٦ ؛ وتكشف لنا لائحة الفائزين عن اتساع اشعاعها المطرد : الجوار القريب ، ثم البلوبونيز ، ثم اليونان البلقانية ، ثم آسيا ، واخيراً المستعمرات الغربية . وتكشف لنا ايضاً عن الاطراد في ارتفاع عددها وتنوع العابها : سباق الركض ، ثم سباقات القوى الاخرى ثم سباق العربات . وعلى غرار مباريات اولمبيا تنظمت مباريات اخرى ، على مقربة من معابد اخرى ، في تواريخ مختلفة . ومن اكثرها رواجاً ما اقيم اكراماً لبوزايدون في مضيق كورنثوس ، ولزفس في نيميا بين كورنثوس وأرغوس ، ولابولون في دلفي . وقد جمعت مباريات دلفي بنوع خاص بين سباقات القوى والسباقات الموسيقية . وقد وضع مثل هذا البرنامج المتنوع ، اكراماً لابولون ، في جزيرة ديلوس الصغيرة الواقعة في وسط السيكلاد ، وهي الجزيرة التي ابصر فيها النور . ولكن ديلوس لم تجذب اليها عملياً سوى الايونيين دون غيرهم .

نظّمت هذه المباريات لمناسبة عيد الاله المحلّي . وكان لكل اله عيده اي «بانيجيريا» التي تعني بالاشتقاق «الاجتماع العام» الذي يضم مؤمنيه ، وهم قديتفاوتون عدداً وقد يأتون من قريب او بعيد. وكان لبعض الاعياد الاخرى مبارياتها ايضاً : كعيد «أثينا» إلهة مدينة اثينا مثلاً الذي ظهر قبيل منتصف القرن السادس مع تطواف الـ « بيبلوس » . ولكن عدد الاعياد التي تتراءى فيها المنافسة على الفوز ما زال ، حتى ذاك العهد ، محدوداً جداً . ولكنه سيرتفع فيما بعد دون ان يؤثر على مكانة الاعياد الاولى الوحيدة التي بلغت مرتبة يمكن وصفها باليونانية الشاملة . وقد بلغ سحرها الاوج ، لا سيما سحر مباريات اولمبيا ، في اواخر العهد القديم ، وكانت شهرتها ادبية اكثر منها مادية . وقد قضى العرف ، في مرحلة انتقال المتبارين والحجاج ، ان تعلن في كل مكان «الهدنة المقدسة» التي يتقيد بها الجميع خير تقيد . وقد حق لكل يوناني حر ان يشترك في هذه المباريات . فكانت هذه المباريات اذن مظاهر جليلة لحضارة يونانيةقائمة بذاتها تتصف بالخيلاء في وحدتها المتسامية فوق التقسيماتالسياسية وفي تناقضها مع«البرابرة» اي مع الاجانب. وعممت ممارسة الموسيقى والتمارين الجسدية والعري نفسه الذي الهم الفنانين ، واثرت بالتالي على تطور الحضارة اليونانية . ولكنها لم تخلق فيها تيارات جديدة بل اقتصرت على تقوية بعض تياراتها القديمة . ولم تقو قط على القضاء على تيارات اخرى . فان صفتها اليونانية الشاملة مثلاً لم تتغلب يوماً على انقسام المدن .

التصوف

لم يختص كل ذلك ، شأن الذباتح ، الا بالطقوس . اما الديانة ، على نقيض ذلك ، فقد تأثرت ، في النصف الثاني من القرن السابع وفي القرن السادس بقوى بعيدة القعر يكتنفها الغموض . فاضطرت لان تفسح مكاناً لتصوف جهله الشعر الهوميروسي جهلاً تاماً ولم يتخذ ، في شعر هيزيود ، سوى شكل ميول ادبية رفيعة . ولم يكن فيها حتى ذلك العهد ما يشبع الميول العاطفية عند الكائن البشري . ولم تفتح عبادة الاموات نفسها ، التي كانت تمارس بالولائم الجنائزية وبالافراط من شرب الخمر على المدفن الذي يعلوه اناء دون قعر ، الا افاقاً كالحة عبوسة ؛ ولم يكن استحضار ارواح اكثر الاموات شهرة ، كما تصفه الاوديسه ، ليطمئن احداً عن حقيقة الخلود الكئيب والواهي الذي ينتظر الآدميين في عالم ما تحت الارض . فالتقوى البشرية تتطلب حقائق اخرى ، حتى ولو اقتضى ذلك موجبات اخرى . لذلك فهي قداستقبلت بحرارة الآراء والمراسيم الجديدة او المجددة المستوردة من تراقيا او آسيا والمرتبطة بالتالي باتساع أفق الاغريق الذي يدينون به لأسفارهم ونشاطهم الاقتصادي .

كان لديونيسوس مكانه الخاص في جميع مظاهر هذه الذهنية الجديدة فغدا الوارث الرئيسي لهذه الحركة الواسعة . فتارة عمل مباشرة على امتداد عبادته : وهكذا فان الاستبداد الاثيني جعل من أعياده اعياداً رسمية ونظم الاحتفال بها ، وهي التي ستنبثق عنها التمثيليات المسرحية . وأشرك تارة اخرى في عبادات او عقائد انتشرت حينذاك . فكان له مثلاً مكان في معبد آلهة « الفسيس » الذي وجب توسيعه بفعل ازدياد عدد المؤمنين الذين استهدفوا ، من وراء الاطلاع على اوّليات علم « الأسرار » ، المزيد من الاطمئنان حيال الحياة الثانية . وقد خصته ايضاً الأساطير الاورفيوسية بالمركز الاول .

نشرت هذه الأساطير جمعيات انتسبت الى اورفيوس المغني التراقي . وقد روت كيف ان ديونيسوس قطعه التيتان اربا اربا ، وهم الشر المتجسم ، وكيف ان أباه زفس قد بعثه حياً . اما الذين نشروها ، تدفعهم الى ذلك غيرة تبشيرية تتنكر للحدود السياسية والاجتماعية ، فقد استخلصوا منها مثلاً وعبرة . فوعدوا بالسعادة الابدية كل من يسلك سبيل تقشف اخلاقي وجسدي نصحوا به الى كافة البشر الذين سيفصل الموت أرواحهم عن أجسادهم النجسة . ولا ريب في ان الاورفيوسيين قد جمعوا في صفوفهم دجّالين وعرافين يجوز الاشتباه بهم . ولا ريب أيضاً في ان السحر كان له مكانه في كتبهم المقدسة . ولكنهم جاؤوا بآراء جديدة كثيرة كان نجاحها في البدء باهراً ثم تدنى طيلة العهد الكلاسيكي ، على الرغم من استمرارها المستتر ، الى ان عادت وظهرت في العهد الهليني ، فلم يكن ممكناً ، في الواقع ، ان يبقى دون اثر الوعظ الديني الذي لم يفرّق بين يوناني و « بربري » اي بين الحر والعبد ، والذي لفت النظر الى تركيب الانسان ، في ان واحد ، من عنصر فان ومن روح ترتبط بمبدأ آخر ، وتكلّم عن دينونة إلهية تنال الروح بموجبها ، بسبب مسؤوليتها على الارض ، اما ثواباً واما عقاباً . وحين زالت الجمعيات

الاورفيوسية السجسة ، استمرت نظرياتهـــا موسعة وموضحة مفهوم الانسان الذي اعتمده الاغريق حتى ذاك التاريخ .

هتافات الغيب

يبدو ان هذا التيار التصوفي الذي دفع بالمتصوفين الى الانخطاف أحياناً، قد كان خير معوان لنجاح هتافات الغيب . وتعود هذه الهتافات الى ما قبل الاغريق الذين ورثوها عن الحضارات السابقة . غير ان القصائد الهوميروسية تكاد لا تتكلّم عنهـــا ، خاصة بالذكر الاحلام والدلائل الطبيعية عن المستقبل التي فسّرها العرافون . امـا بعد ذلك فوجود الكثـير من هاتفي الغيب يصبح امراً واقعاً وطيداً يستشيرهم الأفراد والدول في مواضيع مختلفة فيجيبون بطرائق متنوعة ، وما العرافة الملهمـــة سوى احدى هذه الطرائق ، ولا يرتقي الشك الى نجاحاتها خلال القون السادس . غير ان الانبياء في الشطر الآسيوي من العـالم اليوناني ، هم غالباً من الرجـال ، بينما هم كثيراً ما ينتمون الى النساء في الشطر الاوروبي: ففي كلاروس في ايونيا يتصرف الكاهن تصرف العرافة في دلفي . فيمكن بالتـالي ان تفسّر بعض المراسم ، على هذا الصعيد ، كمظهر من مظاهر تيار ديني قديم تأصل في القرن السادس وقبل به الاغريق اخيراً بعد ان لطفوه بعض التلطيف .

أما الإله الذي كثيراً ما رافق اسمه فن العرافة هذا فهو ابولون الذي لا تقع مراكز الهاتفين بالغيب باسمه تحت عدّ أو حصر . وفي أواخر القرن السادس ، ذاعت شهرة بعضها حتى بـين الشعوب البربرية ، فيستشير الملك الليدي كريزوس عدداً منها ويعترف داريوس الأول بان ابولون « قال للفرس الحقيقة الكاملة » . وبين هذه المراكز التي كان ابولون سيّدها ، تمثل دلفي اشهرها فحسب . وهو قد طرد منهـــا بالقوة إلهة « الأرض » الكريتية . ولكنه اضطر لان يفسح في معبده مكاناً متعاظماً لديونيسوس . ولا ريب في ان هـذه الشراكة قد خدمت نفوذه الذي بلغ الأوج قبيل الحروب الميدية . غير انه لم يستخدم هذا النفوذ عـلى الصعيد السياسي او انه اساء استخدامه . أما على الصعيد الديني فكان هذا النفوذ اكثر فعالية بتنظيمه للعبادات والمراسم أو باطراء الطهارة الجسدية ، منسجمـاً في هذا مع الاورفيوسية . وقد تطرق الى الصعيد الاخلاقي نفسه ؛ فعبرت النصوص الظـاهرة في معبده عن بعض اصول الحكمة ، كما ان هاتف الغيب ، في بعض الحالات ، يوصي باحترام اليمين وتأدية واجبات الضيافة .

ولكن كل ذلك لم يدم طويلاً . فلم يلبث عمل هتافات الغيب ان انحصر في النطـاق الزمني . وسيقتضي للديانة اليونانية تطوّر روحي آخر كي تصبح قابلة لان تنفذ اليها النظريات الاخلاقية .

الشعر الملحمي

لم تعرف الحياة الفكرية ، لزمن طويل، طريقة تعبير ثابتة غير الشعر . فالوزن يسهّل الحفظ عن ظهر القلب . واذا افترضنـا ان الكتابة عرفت قبل اعتماد الابجدية المشتقة عن الابجدية الفينيقية، فان استعمالها لم يترك أي أثر ولم يتح له الشمول إلا في عهد متأخر نسبياً . ثم ان هنالك مصطلحات ، بعضها ديني على الأقل ، قد لعبت دورهـــا ، وهي

ثتراءى في بعض الاوزان الشعرية الخاصة وفي استعمال لغة صنعية وصيغ كلامية ، لا سيا في اقدم القصائد الشعرية عهداً ، أي الملحمة .

يمثل هذا الشعر الملحمي عظمة اوائل العهد القديم .

فهنالك اولاً هوميروس بل بالأحرى القصائد الهوميروسية . فالتقليد اغنى بالمتناقضات حول الشاعر الذي نسبت اليه من ان نستطيع ان نستخلص منها فارقاً واحداً لا عدّة فوارق . ثم ان التشريح الذي اخضعت له هذه القصائد منذ اكثر من قرن ونصف لم يفض بعد الى نتائج اجمع عليها العلماء . « فالقضية الهوميروسية » ليست وشيكة الحل والحالة هذه . غير انه يبدو من الامور المفروغ منها ان الالياذة والاوديسه عبارة عن قصائد مجموعة مكرسة في الأصل لحوادث متفرقة ومختلفة ومؤلفة على حدة . ويصحّ ذلك بصورة جليّة عن « غضب اشيل » في الالياذه و « عودة أوليس » في الاوديسه مثلاً . ومن المفروغ منه ايضاً ان هذه القصائد قد مضى عليها زمن مديد وادخلت عليها بعض التحويرات ، قبل ان تجمع في كتاب واحد ، كما ادخلت عليها بعض التحشيات حتى في تاريخ نشرها في اثينا ، بأمر المستبدين ، في النصف الثاني من القرن السادس . وفي ما عدا ذلك فالخلافات القائمة بين الاختصاصيين كثيرة جداً ، ولكن القسم الاكبر منهم في الوقت الحاضر يعتبر ان الملاحم ، في جوهرها ، قد صبّت في قالبها في القرن الثامن ، على ان الالياذه قد سبقت الاوديسه بخمسين سنة تقريباً . ولكن مهما يكن من أمر هذه الارتيابات ، فانها لا تنال من صنعة العمل الذي يعود الفضل فيه ، باستثناء بعض القطع الرائعة ، الى الجامع أو الجامعين . ففي الملحمتين انتظمت الحوادث التي غلب عليها التشويش في البدء ، حول شخص وعمل : اوليس نفسه يروي اسفاره ، وما مغامراته سوى تحضير لمأساة ثأره النهائية . واذا ما اضفنا الى ذلك ان الملاحم الهوميروسية تنطوي على ديانة وميثولوجيا اضفت عليهما سحرها الشعري ، وتحدد علماً اخلاقياً أو أقله مثالاً بطولياً للانسان ودستوراً للأدب والانس والمجاملة ، نرى كيف انها ، حتى آخر التاريخ القديم ، استطاعت توفير أساس تربوي لفتيان الاغريق .

أما هيزيود ، في أواخر القرن الثامن ، فوجه واضح الخطوط لا يمكننا وصفه بالتاريخي لان واحداً من الشعراء الاغريق لم يعش الحياة المتواضعة القاسية التي عاشها بعيداً عن القصور . وهو قد اعتمد اساليب وأوزان الشعر الهوميروسي ولكن بذهنية اخرى وبتسليط مخيلته على معطيات الواقع اليومي ومعطيات التقوى الراسخة : فلم يكن أدب مدن آسيا وقصور العظماء ، لا ولا السخرية الباسمة ليعرفا سبيلاً الى مسكن هذا الفلاح المتواضع الذي يبالغ في التردد الى المعابد المجاورة . ولعل ما يحرّك منا الشعور فيه هو فظاظته الخرقاء نفسها ، بالاضافة الى اهتمامه للأخلاق والعدالة ، وثقته بالآلهة لضمان قصاص الأشرار ، واستجارته بالخرافات لتفسير وجود الشر على الارض ، ومواعظه الحازمة في سبيل عمل الانسان وواجبه وكرامته . وفي

« نسب الآلهة » ، حيث يحاول تنظيم تسلسل الآلهة ، بعض هذه الآراء والنظريات . ولكنها تبرز مجموعة بشكل أقل جفاء في كتابه « الأعمال والايام » . وقد عرف الفلاح في هذا المؤلف المستعذب على ما فيه من خشونة ، ان يبقى ريفياً على الرغم من تجليه شاعراً ومهذّباً ، ووصف جهود المالك الصغير وارشاداته التقنية ومعتقداته وخرافاته واضطراره لان يوفق بين حيـــاته وقوى الطبيعة .

نشأة الشعر الغنائي ونضارته

اصيب الشعر الملحمي بذبول سريع . ولكن شعراً آخر قد نشأ حاملاً ، في الوقت نفسه ، طابع الموسيقى الشرقية وطابع فردية الاغريق : الشعر الغنائي .

أما بصدد الموسيقى ، أدواتٍ وأنغاماً ، فالعلائق بليديا التي هي نفسها وريثة فريجيا ، كانت حاسمة بلا مراء . واذا نسب الاغريق هـــذا او ذاك من الاكتشافات الفنية لبعض مواطنيهم ، فليس من شأن ذلك ان يخفي واقع استعارات تقدمتها بلا ريب متروكات الحضارة الكريتية . وقد استقر كل ذلك في التركة اليونانية بدخوله في طقوس الاحتفالات الدينية . اما الغناء الجوقي الذي ترافقه الرقصات والحركات الايقاعية التي تقوم بها فرق من الرجال والفتيات والاولاد فلم يلاق في أي مكان ما لاقاه من اكرام واعتبار في سبارطة . وغدت الموسيقى مادة اولية في منهج تربية الفتيان الاغريق ، حتى سن الثلاثين احياناً .

وبالاضافة الى ما اوجده الاغريق لشعرهم الغنائي من اوزان كثيرة ، فقد اقدموا على تسخيره للتعبير عن مشاعرهم الشخصية ولاتّقاء تهم المتهمين ولتوجيه التهم لغيرهم ولمحاولة الظهور دونما حياء وللتغني باحقادهم واهوائهم وآلامهم وافراحهم . واوجدت ، منذ القرن السابع ، المراثي والاناشيد والقصائد الانتقادية خاضعة باستمرار للتحسين والتكييف ، فنظمها شعراء عديدون لم يصل الينا منهم ، لسوء الحظ ، أية قصيدة كاملة . وقد لجأ المشترع صولون الى الشعر لدعم عمله السياسي والاجتماعي ، وأفرغ ثيوغنيس الميغاري جام غضبه شعراً ، ووجدت سبارطة في بعض الاجانب افضل شعرائها في حقل التربية المدنية . بيد ان غالبية الشعراء الغنائيين ، الذين ولدوا أو عاشوا في مدن آسيا الصغرى أو في الجزر ، تغنوا بافراح وحرارة الحياة الشهوانية التي فتحتها فيها ثروة الشرق القريب منها . وأشهر هؤلاء الشعراء هم ألقيا والشاعرة صافو الميتيليني في أوائل القرن السادس اللذان لايعرفان لضبط النفس من معنى ولا يتقيدان في هيجانها بمصطلحات أدبية تافهة : فصافو تتظاهر بشهوة معثرة منذ التاريخ القديم ، ويمجد ألقيا موت مستبد مكروه بنداء الى معاقرة الخمر .

نشأة العلم والفلسفة

كان الشرق اليوناني اذن مهد الشعر الغنائي ، وكان ايضاً مهد العلم والفلسفة . كانت الحضارات الشرقية السابقة ، اقـــله بصدد العلم ، قد جمعت المواد الاولية . ولا ريب في ان الاغريق استعاروها عنهـــا . فان ايونيا ، حيث ظهرت هذه الانظمة

العقلية ، كانت على اتصال بكافة الشرق. وقد أهلها موقعها الجغرافي لان تطلع على جميع تحقيقاته. فعن طريق ليديا التي خدم ثاليس ميلي سيّدَها ، لا عن طريق رحلته الى مصر فقط التي ينسبها اليه التقليد ، تمكن من معرفة علم الفلك وعلم الحساب اللذين اشتهر بهما كهّان بلاد ما بين النهرين. واذا مـا عدنا بالذاكرة الى هؤلاء ، لن يدهشنا ان يكون تنبأ بكسوف الشمس الذي حصل في ٢٥ ايار من السنة ٥٨٥ . ويمكن القول نفسه عن التقنية ايضاً . ويعزى الى ثاليس انه اشرف على حفر احدى الترع لتجفيف مسيل احد الانهار . وبنى مهندسو ساموس رصيفاً في البحر بلغ ٣٦ متراً ارتفاعاً و ٣٦٠ متراً طولاً لتوسيع المرفأ في الجزيرة ، وحفروا قناة لجر المياه بلغت ١٠٠٠ متر طولاً . ولكن هذه الاعمال الباهرة التي بدت للاغريق وكأنها معجزات لا تصدق سبقتهـا منذ زمن بعيد اعمال مماثلة في الشرق . ولم تكن الطرائق التقنية المعتمدة ، من حيث مبدأهـا على الاقل ، اكتشافات بالمعنى الصحيح . اما التجديد الحقيقي فهو انصرافهم ، بمجهود منطقي ، الى مباشرة تنظيم هذه المعارف علماً مجرداً . فحيث لم يتجاوز الشرق التجربة والاختبار ، ولدت الهندسة مع ثاليس ، كما قيل ، فدفع بها بيثاغور الى الامام ، اذا لم يكن هو نفسه قد اكتشفهـا ، وأوجد في الوقت نفسه علم الاعداد .

ولم يكن دور الايونيين في الفلسفة اقل اهمية . وكان بمكنة الشرق هنا ايضـاً ان يوفر لهم بعض الشيء ، اي نظرياته في تكوين العالم التي انطلقت جميعهـا من مبدأ اولي بغية تعليل خلق العالم . ولكن المبدأ ، وفاقـاً لتعليم هذه النظريات ، لم يتميز عن الاله ، كما لم يتميز الخلق عن ظهور آلهة اخرين . اما فضل الايونيين فهو انهم واجهوا المعضلة نفسها منعتقين من الفكرة الدينية ومستندين الى عقلهم فحسب . ولكن قد يصح ان يقال في هذا العقل الذي لم يزل بعد في عهد الفتوة انه انما يستمد من تلقيه بنفسه . فحاول ثاليس وتلميذاه اناكسيمندروس واناكسيمينوس اكتشاف المبدأ الواحد الذي ادت تحولاته الى ولادة الاشياء والكائنات . واقترح بعدهمـا هيراكليت الافسسي ، وهو ايوني ايضاً ، عنصراً اولاً هو النار ، ولكنـه اضاف الى نظريتـه هذه فكرتي الصراع الدائم والتطور المستمر . وقد ذهب بعض الايونيين الى ايطاليا الجنوبية ينشرون فيها تعاليمهم ؛ فأسس كسينوفانوس الكولوفوني ، الهارب من السيطرة الفارسيـة ، مدرسة ايليا ، كما اسس بيثاغور الساموسي ، الذي رفض الخضوع للاستبداد ، ندوات للتلاميذ في مدن خليج طارنتا حيث استمر تعليم نظرياته حتى القرن السادس .

اما شهرة بيثاغور العلوية فيفسّرها غنى مذهبه حيث رافق تعليمه حول النفس وتعـاقب تجسدها التقمص علم اخلاقي وقانون حياتي ، بينما كانت فلسفته ، في سعيهـا لاكتشاف سر الكون الذي وجدته في تناسق الاعداد ، مثاراً للابحاث العلمية. ولكن حتى ولو لم تعش طويلاً مدارس الفلاسفة الايونيين الذين لم يفرقوا بين بحوثهم وبين العلم الذي انقطعوا اليـه ، فانهم اول من اطلق الفكر اليوناني وشق الطريق امام اقداماته المقبلة .

اولوية الفكر اليوناني

اصبحت الحياة العقلية عند الاغريق ، منذ آخر العهد القديم ، ابهى حياة عقلية في العالم المتوسطي . ولم تكن اية حضارة شرقية حينذاك لتتمكن من الاتيان بشيء حي جديد تنافسها به . كان كورش الاخميني قد طلب طبيب عيون من فرعون مصر ، ولكن خلفه الثاني داريوس قد احتفظ في بلاطه بالطبيب ديموسيديس الكروتوني الذي سبق وتنازعته مدن يونانية عديدة والذي توسط لديه ، بعد ان شفاه من التواء في مفاصله ، خدمة للاطباء المصريين المحكوم عليهم بالتعذيب تكفيراً عن جهلهم . فيتضح من هذه الروايات ان انتقال الاولوية منذ ذاك العهد قد غدا محتوماً .

انزل الاغريق الشرقيين عن عروشهم ولكنهم لم يهملوا الاستفادة من اختباراتهم واكتشافاتهم ؛ لا بل انهم سيستمرون زمناً طويلاً في الافادة منها ، بمقدار تمكنهم من انه ان معرفتها . ولكنهم ينهجون فيها نهجاً آخر مسيّرين العقل البشري ، بقيادة منطقهم الفطري ، في الطرق الجديدة التي تتراءى امام فضولهم الذهن . وليس من اتفاق الصدف ان يظهر ، في العهد نفسه وفي ايونيا نفسها ، علماء الجغرافيا والتاريخ . ولا يزال هذان العلمان متعلقين وملتبسين بالاساطير عند واضعيهما ، « الناثرين » الذين كانوا اول من اقدم على التخلص من الايقاع الشعري . ولكن احدهم ، هيكاته الميلي ، قد وضع المبدأ التالي : « اكتب ما يبدو لاني اعتبره حقيقة ؛ اذ يبدو لي ان روايات الاغريق المتعددة جديرة بالسخرية » . فاذا كان فضل لا يُنكر فضل مواطنيه العلماء والفلاسفة ، فانه ، باسناد ابحاثه الى النقد كما اسندوها هم الى العقل ، انما يشق الطريق نفسها امام خلفائه .

الهندسة المعمارية

يصح القول نفسه في الفن الذي انتهى ، خلال هذا العهد ، الى ابعاد مطارقه وتأمين نموه المقبل .

تنحصر الهندسة المعمارية القديمة في المعبد ، باستثناء بعض التجهيزات الصغيرة كالينابيع والاقنية وتزيين الاماكن العامة والشوارع في المدن المتوسطة المشيدة دون تصميم سابق . ويشتق المعبد ، المصمم كمسكن للإله ، اشتقاقاً مباشراً من الميغارون الميسيني : سقف ذو منحدرين وأعمدة امامه وقاعة في الوسط يوضع فيها التمثال . ولكن قياساته قد تجسمت منذ القرن السابع بعد ان اعتمد الحجر مادة للبناء . فأحيط بسقف من الاعمدة وزيد على طوله بجيث تخصص في آخره مذخرة للكنوز ، وزيد في عرضه ايضاً بحيث اسند السقف الى صفوف من الأعمدة .

فهل من اثر للشرق في مجهود التوسيع هذا الذي لم يبلغ حد الضخامة؟ ان البون ، على كل حال ، يبقى شاسعاً جداً . ومن الافضل ان نفكر بالحري بازدهار المدن وتفاخرها وتنافسها . فاغريق الغرب لا يعترفون باية افضلية لاغريق الجزر والساحل الآسيوي ، لا سيما وان معرفتهم بالبناية الشرق الضخمة نفسها لم تكن لتؤثر فيهم . وفي هاتين المنطقتين المتقابلتين من العالم اليوناني ،

تقاربت قياسات المعابدالمشيدة حينذاك : ١١٢م× ٥٦ م في ساموس و١١٣ م × ٥٤م في سيلينونته من اعمال صقليا. وقد حدث احياناً ان بعض المعابد لم يكتمل بناؤها أو تأخر وقتاً طويلاً بسبب نفاد الموارد المرتقبة . اما اليونان الاوربية فلم تسوغ لنفسها هذه القياسات، فاكتفى الاستبداد الاثيني ، على الرغم من رغبته في التظاهر بالتقوى والقوة ، ب١٠٨ م × ٤٤ م لمعبد زفس الاولمبي الذي أسسه والذي لم يكتمل تشييده إلا بعد ذلك بستة قرون ونصف القرن .

لقد برهن الاغريق على كل حال ، في حساب القياسات لأدق عناصر المعبد ولإحكامها ، عن شعور بالانسجام والتوازن يلفت الانظار ولا يتوفر لغيرهم . الى ذاك العهد يعود قيام « النظامين » : الدوري والايوني . ويتصف الاول بأنه أقل تكلّفاً وأكثر نقاء واداء ، ويحتفظ

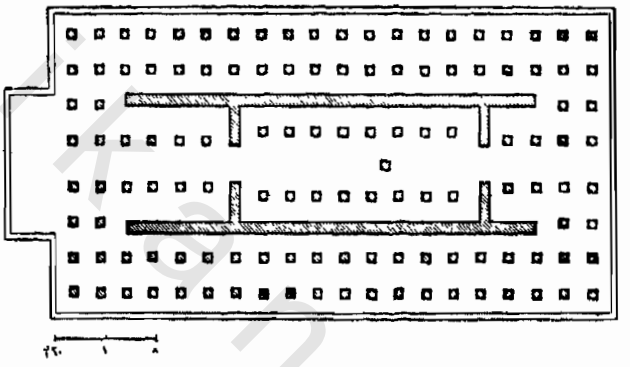

الشكل ٢١ ـ معبد ارتميس في افسس
شرع في تشييد هذا المعبد الكبير في القرن السادس .
اسهم الملك الليدي « كريزوس » في الانفاق عليه . ازدان بالنقوش ٣٦ عموداً من اعمدته المائة والسبعة والعشرين.

في الحجر بذكرى الخشب ؛ عموده لا يرتكز الى قاعدة ويعلوه تاج بسيط جدّاً ؛ وفوق صف الاعمدة ، تمثل المجموعات الثلاثية التجويف نتوء روافد الصحن المعترضة ، وتمثل اللوحات الرخامية المنقوشة المسافات الجوفاء التي تفصل بينها . أما النظام الايوني فأوفر زينة واكثر أناقة وتجميلاً ، كما يليق بمنطقة اشتهرت حضارتها بالرقة والذوق ؛ عموده اكثر رشاقة ويرتكز الى قاعدة ويعلوه تاج منقوش نقشاً حلزوني الشكل ؛ ويمتد فوق صف الاعمدة افريز طويل يتسع للنقش . ولكن مهما كان النظام ، فقد قامت نِسَب دقيقة بين قطر العمود وارتفاعه وفي غِلَظِه المحدّب وعدد تجويفاته المستطيلة والمسافات الفاصلة بين الاعمدة . فكل شيء في المعبد اليوناني يخضع ، منذ اواخر القرن السادس ، لحسابات دقيقة يجريها مهندس متمكن في آن واحد من علم الحساب ومن دستور للذوق على بعض التجرد .

النقاشة

أسهمت النقاشة مع الهندسة المعمارية في تزيين المعبد . فقد وضع هذا الاخير امام النحات مساحات حجرية يجب تزيينها بالرسوم . ومن الشذوذ عن القاعدة ما حدث في افسس ، عند اعادة بناء معبد أرتميس الذي حرص كريزوس على الاشتراك في اكلافه ، من

تزيين قسم من الاعمدة بنقوش ناتئة في قاعدته السفلى . فان هذه الطريقة ، المستوحاة مباشرة من الشرق ، لم تعرف الشمول . ولم يفسح المعبد اليوناني مجالاً للنقوش إلا في أمكنة حدّدها تصميمه الهندسي نفسه . فاتفق النظامان على ان يكون هذا المجال جبهة المعبد المثلثة الامامية وجبهته المثلثة الخلفية وآثروا ، بالتفضيل على النقوش الناتئة ، وضع تماثيل لا ترى ظهورها أمام الجدار الداخلي . اما في الامكنة الاخرى فقد وجب استعمال النقوش الناتئة : فأفسح لها النظام الدوري مستطيلات لوحاته الرخامية والنظام الايوني افريزه الطويل .

وضعت الجبهات المثلثة والالواحات الرخامية الفنان امام مشكلات دقيقة بسبب قياساتها المزعجة . فحيال الجبهات وجب عليه ان يوفق بين النقوش وبين الزاويتين الجانبيتين الحادتين جداً ، مما فرض عليه الانتقال التدريجي من الاشخاص الواقفين في الوسط الى الكائنات النائمة او الزاحفة . وحيال مجموع اللوحات الضيّقة وجب عليه تصميم مشاهد صغيرة تملأ المساحة ضمن الاطار دون ان تتخطاه . فيمكننا والحالة هذه تتبع جهود النقاشين الذين كانوا مترددين خرقاً في البدء ثم استخلصوا من الصعوبة نفسها قوانين الهامهم وفنهم .

اما حيال الافريز الايوني فكان عمل النقاشين اكثر سهولة لان المساحة تتسع لاشخاص عديدين . ولكن وجب عليهم توزيعهم دون تشويش وفاقاً لموضوع عام ، وتنويع الاوضاع والمشاهد دون ضرر بالفكرة العامة . فتوصلوا الى ذلك بعد جهود ناشطة مستوحين ، من جهة ثانية ، طريقة الرسم على الآنية الذي استلزم هو ايضاً توزيع المشاهد في عصابات دائرية . ومنذ الربع الثالث من القرن السادس ظهرت في «مذخرة» معبد دلفي ، التي شيّدها اهالي « سيفنوس » القائمة على جزيرة والغنية بمناجمها الذهبية ، مشاهد ميثولوجية وبطولية عظيمة ، كصراع الآلهة والجبابرة او كاجتماع الآلهة الاولمبيين لتتبع تطوّرات معركة امام طرواده . وستستمر معالجة هذه المواضيع على افريز المعبد حتى العهد الهليني نفسه . وتبدو الاوضاع منذ ذلك الحين بتنوعها . والدالة العائلية فيها — يد تلقى على ركبة زفس ؛ ابولون يلتفت الى شقيقته ارتميس التي تلامس كتفه بيدها — وفتنتها وطبيعتها ، خليقة بالعهد الكلاسيكي نفسه .

اما صناعة التماثيل المستقلة عن البناء فقد كانت هي ايضاً مرتبطة بالديانة لان كل المواضيع التي عالجتها تحمل طابع الديانة وتمثل الآلهة ومقدمي القرابين والحيوانات الرمزية . وقد تتلمذت في البدء على الفن الشرقي ، ولا سيما المصري ، الذي اعتمدت بعض مصطلحاته ، فبرز خرقها في جمود الاوضاع وفقدان النسبة الصحيحة في القياسات . ولكن النجاحات ، في هذا الحقل ، كانت حاسمة ايضاً . فتحرر الفنانون من الانقياد للتقليد دونما توغل في الحركة العنيفة ، اذ قد حالت دونها الديانة وحسّهم المرهف بالنبل والتناسق . غير ان الجسم لم يخضع لقاعدة التناسب ، مع ان درسه التحليلي الدقيق ، الذي سهّله ميل الى العري فرضته التمارين الرياضية ، قد اتاح بروز العضلات تحت الجلد . ثم دبت الحياة في الوجه رويداً رويداً ، فانتهى وقار التماثيل الدورية

الاولى وتصنع التماثيل الايونية وتكلّفها وابتسامتها المفتاحة احياناً الى الانصهار في التعبير عن مشاعر رقيقة يهتز لها الناظر .

كان نتاج هذه المرحلة التفتحية القصيرة ، في النصف الثاني من القرن السادس وفي السنوات العشر الاولى من القرن الخامس ، غنياً جداً بالتحف المختلفة . وقد اختلفت آراء الاختصاصيين حول نسبة هذه التحف الى فئة معينة ، وحول المكانة التي تحتلها فيها . فكان ان اسهمت حدة الجدل في ذيوع شهرة عدد كبير منها ، لا سيما بعد الاثر الذي احدثه اكتشاف كثير من القطع الاصلية — بينما هي نادرة جداً في العهود اللاحقة نفسها — اثناء اعمال التنقيب في قلعة اثينا ودلفي وديلوس : فكان لأعمال « البرابرة » هنا نتائج خيرة . ولا ريب من جهة ثانية في الاثر البعيد الذي تتركه ، على كل حال ، نشأة فن عظيم يفوز ، في اقل من قرنين ، بالسيادة الفنية ويحقق ارتعاش الحياة . ومن حيث ان هذه التحف ، البديعة احياناً ، اكثر من ان تعد وتستعرض فاننا نكتفي بالاشارة الى روائعها التالية : اللوءات الدابلة المنتصبة على قوائمها الامامية الضخمة والمصطفة خطاً مستقيماً في رصيف على مقربة من بحيرة ديلوس المقدسة ؛ ابو الهول في دلفي الذي اجثمه « الناكسيون » في اعلى عمود يبلغ عشرة امتار ارتفاعاً ؛ أحصنة افريز مذخرة سيفنوس واللوحات الرخامية في مذخرة « سيكيوني » أو اللوحات الرخامية في سيلينونته حيث نصّب الهوبليت الأثيني ، اريستيون .

سنقتصر اذن على ايجاز تطور طرازين من التماثيل لا نغالي اذا قلنا عنهما ، بقطع النظر عن مصادرهما ، انهما لم يتميزا عن الحضارة اليونانية ولن يتميزا عنها . وقد رأى بعضهم مرة اخرى في تضادهما ، التضاد القائم بين الدورية والايونية . ان هذا التضاد قائم بالفعل في النقاشة : تصميم أوفر منطقاً وتقشفاً وخشونة من جهة ، وأناقة اكثر لباقة ومزيد من التخنث من جهة ثانية . ولكن ، بصرف النظر عن نسبة هذه التحف التي تثير التكوك ، لم يقم بين فرعي الشعب اليوناني الرئيسيين حاجز فاصل محكم : فالفنانون كانوا يتنقلون حيث يُطلبون والمزارات التي قصدها الاغريق من كل حدب وصوب كانت توفر الالتقاء والتجاور . وان هذين الطرازين وما عرفاه من ازدهار متواز ليرتبطان في الحقيقة بجوهر الحضارة اليونانية المشترك .

فالطراز الاول هو الشاب العريان ، الـ « كوروس » . فهل هو اولون ، أم مصارع مثالي ، أم مصارع معين ؟ لا فرق . انه يوناني بعريه التام ، على الرغم من الطابع المصري الذي يميز التحقيقات الاولى . ويمكن تتبع تدرّج اكتماله في واقعه التشريحي ورشاقة قوامه ورقة عواطفه . في البدء — شأن الارغوسيين كليوبيس وبيتون ، وهما مثالا حب الوالدين في دلفي — كان الجسم ربعة والكتفان كتفي حمّال والذراعان قصيرين والبطن اصطلاحياً والركبتان كذلك ، والساقان مشدودين والعينان بارزتين . ثم دبت فيه الحياة وتليّن وتنقّى ، ففقدت نتوءات عضلاته خطوطها الهندسية كما فقدت مفاصله ما فيها من تبسيط ودخلت عيناه في

حجاجيها ، واستعيض عن الابتسامـــة الجامدة ، على شفاه « المراهق الأشقر الاثيني » وفي نظره ، بنوع من الحزن الحالم .

أما الطراز الثاني فهو المرأة الملتحفة التي أفضت الى مثال الـ « كورا » . وكان هـذا الطراز قديماً ، كما يتضح من تمثال « سيدة أوكسير » المعمّاة او إلهـــة ساموس ، « هيرا » ، بملابسها الطويلة المشدودة التي تتخذ، مع ذلك اشكال الانحناءات في الصدر وفي الظهر . ولكن الانوثة تبرز بقوّة وتنتصر بغلبة ثم تعتدل حياء في وفرة تماثيل الفتيات التي انتصبت في قلعة أثينـا منذ القرن السادس . غير ان نجاحاً نهائياً قد أحرز ، يؤيده علم يتقدم تقدماً مطرداً ، أعني به علم اشكال الجسم التي يتهدل على استداراتها الموزونة الـ « بباوس » الطويل أو الغـلالة القصيرة . ولكن هنالك علوماً اخرى لا تزال تتعثر في ترددها . فكان الاهـــتمام بالزينة الزاهرة يفرض غنج الخضاب ، وتنوع الألوان في الالبسة وأقسامهـا المطرزة ، واحكاماً معقّداً في مطاويهـا المتضادة الانحناءات ، والغنى في الحلى . ثم تنظّم هذا الاهتمام ، فغدت الألبسة اكثر تواضعاً في اللون والزينة ، وزاد فيها التهدّل ، وقلّت المطاوي ، وخفّ تجعد الشعر ، وأصبح الزي اقل صخباً منه في أيونيا . وحدث التبـــدل نفسه في الوجه حيث انخفضت الوجنتان وزالت الابتسامة المسايرة وحل محلها تحفّظ « الحاردة » الوقور : التي يرجّح انها غير حاردة ، على كل حـال . فليس بَعد من أمر مشكل: حتى ولو كانت هذه التماثيل مصمّمة بغية تمثيـــل الفتاة كنموذج للجنس اللطيف ، فإن لكل تمثال ، مع ذلك ، شخصيته الطبيعية والأدبية .

وهكذا فقد يكون الشرق الذي ساعد الخطوات الأولى ، قـــد وجّهها ايضاً . ولكن النقّاش اليوناني ، بتحريره جسم وروح الـ « كوروس » العاري ، وجسم وروح الـ « كورا » التي سينتهي خلفاؤه بتعريتها أيضاً ، قد قـام بعمل يفوق مجرد تحسين التقنيات القديمة : فهو ، شأن الفيلسوف والعالِم ، قد خضع لمثل أعلى جهله الناس تحت سماوات اخرى .

صناعة الخزف

طرأ على صناعة الخزف ايضاً مثل هذا التطوّر الهـام والحاسم . ولم يكن في الحقيقة ليتاح إلا للمعجزة تطوير زخرف هذه القطع السريعة العطب والمصنوعة من مادة حقيرة ، اذا نحن لم نعتبر ان الاهتمام التجاري ، حيالها ، منذ ان نمت العلائق البحرية ، قد رافق الاهتمام الجمالي . اما نتيجة الابتكار ومراعاة الذوق العام والتأثير عليه باستباقه أحياناً، فكانت، في احوال النجاح، زيادة في المبيعات وخسارة للمنافس.

لم يعرف القرنان التاسع والثامن هذه المشاغل لأن التصدير ما زال خلالهما على نطاق ضيق . غير ان وحدة العالم اليوناني قد ظهرت مع ذلك في المبادىء الزخرفية المشتركة : كان ذلـك عهد النمط الهندسي. ولا يمت هذا النمط بأية صلة الى التبسيط الذي تسيطر فيه الاضلاع المنحنية كما درج في آخر العهد الكريتي وفي العهد الميسيني ، ولكنه يذكّر بوشي تتداخل فيـــه الخطوط والزوايا بحيث لا تترك مكاناً خالياً منها . أما روائعـــه فهي الأواني الكبيرة العائدة الى مقبرة

الـ « ديبيلون » في أثينا ، التي تتعاقب على بطونهـا ، بين الخطوط المتقاطعة والمعينات والمثلثات واشكال الساعات الرملية والخطوط المعوجّة والصلبـان المعقوفة ، مشاهد لاشخاص عديدين ، مبسطين عن قصد لا عن خرق ، يتصفون بطول الساقين ونحافتها وبقوام الزنابير وجذوع مثلثة الزوايا ، ولأحصنة قوائمها شبيهة بقوائم الجراد الكبير وأعرافها منتفشة تليات .

ثم ظهر ، في القرن السابع ، « النمط الاستشراقي » المعاصر لازدهـــار أيونيا وللأواصر الوثيقة بشرق غني بالزخرف التزييني وبالحيوانات والمسوخ ايضاً . فعالج الرسامون عـلى الفرين المواضيـع التي عالجها نقاشو المعادن على الذهب والعاج ، وهي مواضيع نباتية كالبردي والرمان ، وخطوط متشابكة ورسوم وردية الشكل وخطوط حلزونية ورسوم سمفية الشكل ، وكلهـا مشتقة من الجذوع والازهار . وهي مواضيع حيوانية ايضاً بعضها خيالي كأبي الهول والعنقـاء المغربة والتنـــين والحصان المجنح وبنت البحر ، وبعضها واقعي كالأسود والثيران والكلاب والخنازير البرية والأوعال والوز ، وكلها منقولة عن تقاليـــد الشرق المخيفة ، فرسمت بخطوط واشكال أنيقة توافق نحيلة شعب لم تبد له الحياة مخيفة مهما كان من قساوتها . وما لبثت رسوم الاشخاص ان تسربت تدريجيـاً الى هذه المواضيع . فبرهـــن الخزّافون الكورنثيون بنوع خاص ، عن مهارة كبيرة بابرازهم في هذا الفيض الزخرفي وباظهارهم في اوضاع متنوعة ويجمعهم في مشاهد مستوحاة من الميثولوجيا وبحفر شق حول رسومهم التي يضفون عليهـــا بعض النتوء بواسطة بقع وخطوط حمراء او بيضاء . وهكذا سيطرت الخزفيات الكورنثية ، منذ اواسط القرن السابع حتى اواسط القرن السادس ، عـــلى اسواق حوض البحر المتوسط ولا سيما الاسواق الايطالية .

بيد ان الاولوية انتقلت اخيرا الى اثينا ، المدينة بذلك الى فنانين متميزين بالاتقان والحذق والابتداع . ويعود اشهر نجاحاتهم الاولى ، « اناء فرنسوا » ، الى السنة ٥٦٠ تقريباً ، وقد رسم عليه ، في عصابة دائرية يبلغ محيطها مترين وارتفاعها ستين سنتيمترا ، مائتان وخمسون شخصاً ناشطين في اعمالهم وموزعين على مستويات مختلفة بتنوع مدّوخ . ويرمز اكتشاف هذا الاناء في اترووريا الى نهوض اثينا بمنافسة كورنثوس منذ هذا التاريخ . ولكن نجاح هذه المنافسة المستند اساسا الى الطريقة الكورنثية ، قد تركز على قاعدة اثبت متانة حين استخدمت ، منذ السنة ٥٣٠ تقريباً ، طريقة جديدة فرضت نفسها تدريجيا ، الا في نواحي اختصاص معينة . فبدلا من الاشكال السوداء البارزة امام خلفيّة حمراء ، اعتمد البرنيق الاسود للخلفية واللون الاحمر للرسوم التي امكن ايضاح التفاصيل عليها بالوان اخرى . ثم اصبحت المواضيع في الوقت نفسه اكثر انسانية : فظهرت ، الى جانب الاساطير ، المشاهد العائلية والاعمال ومشاهد الحياة اليومية في الحقل والمدينة والريف . وهكذا احرزت اثينا اولوية ستدوم طيلة العهد الكلاسيكي.

هنالك اوان لم تزين باي زخرف وقعهـــا الخزاف الاثيني ، في المكان اللائق ، بزهـــو له

ما يبرره . ومما لا ريب فيه ان تقدم الصناعة الفنية يلفت النظر بتناسق ونبل وبراعة الخطوط الخارجية وبميزة انواع البرنيق المستعملة . واذا ما ابتدأنا به إناء فرنسوا ، قبل غيره ، نرى ان الرسامين لم يترددوا في كتابة اسمائهم على مصنوعاتهم كما درج النقاشون على ذلك ايضا . ان توقيعهم لرمز صغير ولا شك ولكنه ذو مغزى رفيع : فالفنان يشعر بفخار بفرديته ويعبر عنها . يستلهم موضوعه بحرية ويحققه باساليبه الخاصة لا باساليب تقليد مفروض . وفي الواقع اخذت بعض الشخصيات ، منذ ذاك الحين ، تثبت اقدامها في هذا الفن السريع الذي يوجب ملاحظة دقيقة ويدا بارعة على السواء . وليس من اتفاق الصدف ان يتوصل هذا الفنان المتحرر الى تحرير حركات الانسان الذي يرسمه والقاء الضوء على حالته النفسية ، بوضع حركة او خط من خطوط الوجه .

مراكز الاشعاع

شق العهد القديم اليوناني اذن ، في كل نطاق ، الطرقات امام الكلاسيكية التي ستليه . ولم يتوفر لاية حضارة ، حتى ذلك التاريخ ، ان تسير ، بمثل هذه السرعة ، في رحاب تطور على هذا الشمول ، كما لم يتح لأية حضارة ايضا ان تحضر بمثل هذا التفوق ، وبنجاحاتها الخاصة ، بنجاحات المستقبل القريب : لم ينته شيء الى الكمال بعد ، ولكن اسس الكمال قد وضعت .

لم تتساو اجزاء العالم اليوناني في الاسهام بهذه التغييرات البعيدة القعر ، كما لم تتساو في الافادة منها . ولا تزال اكثر من منطقة ، في اوائل القرن الخامس ، بجامدة في تأخرها ، قابعة في وديان لا يصل بينها غير مسالك البغال ، بعيدة عن التيارات الفكرية الجديدة . ولعب غيرها ، بفضل اتصالاتها الوثق بالعالم الخارجي وظروف اكثر مؤاتاة وخدمات بعض الافراد ، دورا يتفاوت اهمية واستمراراً . ولنجمع الآن حول بعض الاسماء ، ايجازا واستنتاجا ، بعض المعطيات المبعثرة هنا وهناك في الصفحات السابقة . فمن شأن هذا التلخيص السريع ان يبين بوضوح مظهراً اخر من « المعجزة اليونانية » لا يقل اهمية عن غيره ، اعني به تنوع الجهود ، اي الحيوية والتلاحم ، في شعب لم يحل تفتته السياسي ولا منافساته الاقتصادية دون وحدته المعنوية . وقد سبق لنا ان اشرنا اكثر من مرة ، بهذا الصدد ، الى عمل المستبدين الشخصي ؛ وعلى الرغم من ان اغريق العهد الكلاسيكي قد جحدوا ذلك وتنكروا له ، فان ما تدين به الحضارة اليونانية لباعثيها الاول ، في غير اشكالها المادية ، لعظيم جداً . ولكن عمل المستبدين هذا ابعد من ان يفسّر كل شيء لان مرحلة الحكم الاستبدادي لم تطبع بطابعها كافة المدن الهامة ، كما ان بعض المدن التي سيطر عليها هذا الحكم ، لم تجن منه اية فائدة ثقافية . فنرانا هنا ، اذن ، مهما كان من تفوق الافراد ، امام واقع آخر هو اتحاد الشعب .

لعبت دورها ايضا المعابد التي شملت شهرتها اليونان : اولمبيا ودلفي لمجموع العالم اليوناني ، ودياوس للايونيين . فقد اسهمت هذه المزارات بقوة ، كما رأينا ، في نشر العاب القوى والموسيقى والشعر الغنائي . وكان هنالك علم اخلاق اشتهرت به دلفي قرظه سقراط نفسه ، كما ان مؤلفين قدامى

كثيرين قد رأوا في ابولون العرّاف احد المفضلين على الانسانية . وكان هنالك خاصة ، حول آلهة هذه المعابد، تنافس المدن التقوي ، وقرابينها وابنتيها المختلفة ، التماثيل والاعمدة والمذابح و«المذاخر» بشكل معابد صغيرة، التي شيدتها هذه المدن داخل الاسوار المقدسة . ففقدت هذه الاسوار وبقيت ، حتى اليوم الذي هدمت فيه ، متاحف لم تتقابل فيها السخاوات فحسب ، بل الاذواق والمواهب ايضا . وعلى هذا الصعيد ، غدت العبادات اليونانية الشاملة سببا فعالا ، مباشرا او غير مباشر ، من اسباب تقدم الهندسة المعمارية والنقاشة .

بين مجموعات المدن الاقليمية ، في هذا العهد ، يجب ان نحل ايونيا في المرتبة الاولى . فكل شيء قد ساعدها لمدة طويلة ، لا سيما قربها من الشرق . فكانت بوتقة سكب الايونيون فيها من نفسهم واخرجوا منها مزيجاً مضطرماً طرّقوه وكيفوه لاستخدامات جديدة .

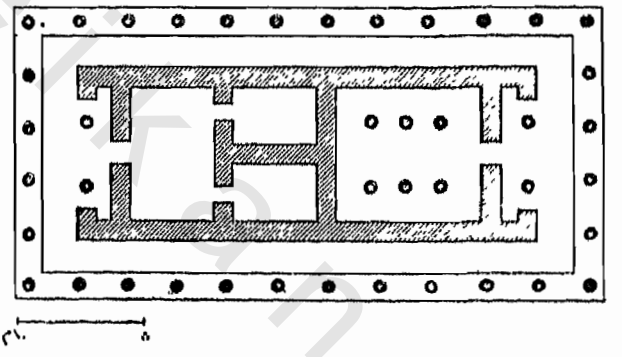

الشكل ٢٢ ـ معبد الهيكاتومبيدون في قلعة أثينا
يبلغ طول المعبد القديم (المشار اليه باللون الاسود) مائة قدم ، ولذا أطلق عليه اسمه . وسعه أثناء بيسيستراتوس باحاطته بالاعمدة .

اما في النطاق الفني ، فان اسهام المدن في صقليا وفي ايطاليا الجنوبية يوازن اسهام المدن الآسيوية . فكان النمط الدوري في الهندسة المعمارية والنقاشة ، من حيث الحياة والصفاء، شبيها به في الباوبونيز نفسها . وتوجد اهم مصنوعاته المميزة في بوزايدونيا (بيستوم) عند مدخل مقاطعة كمبانيا ، وفي سيلينونته على الشاطىء الجنوبي من صقليا. ولكن الغرب اليوناني ، خارج نطاق الفن ، لم يزل ، في اواخر القرن السادس ، في مستهل توسيع مكانه في الحضارة اليونانية ، فاقام فيه مؤسسو مدارسه الفلسفية الآتون من ايونيا .

وهاجر كثيرون في الوقت نفسه من ايونيا الى امكنة اخرى ، لان العهد الذهبي لليونان الآسيوية كان قد زال عند نهاية العهد القديم . ودخلت ايونيا في سبات عميق بعد الفتح الفارسي اولا ، بعيد منتصف القرن السادس ، وبعد قمع ثورتها ثانيا ، في اوائل القرن الخامس ، الى ان ايقظتها انتصارات الاسكندر . ولكن اليونان البلقانية كانت خليقة بان تحل محلها.

كان النشاط قد دبّ فعلا في اليونان البلقانية . وليس باستطاعتنا هنا ان نحصي كافة المدن التي احتلت مقاما محترما في الجهود المشترك، مع انه كتب لبعضها التواضع الدائم ولبعضها الآخر الانحطاط والسقوط . فعلى الرغم مما يحيط بشهرة البيوسيين من ازدراء مهين ، فقد كانوا يملكون سلسلة تماثيل ابولونية في معبد « ابولون بتويوس »، كما كان لهم « بنداروس » ايضا الذي تعود اقدم « عرافاته » ، اكراما لاحد النبلاء التساليين ، الى السنة ٥٠٠ تقريبا. اما سبارطة التي سيغدو اسمها في وقت قريب مرادفا للشدة والحياة الضجرة ، فلم تنكمش على نفسها قبل منتصف القرن السادس . فحتى ذلك التاريخ استقبلت الشعراء واستدعت المهندسين والصياغ الايونيين وشيدت الابنية المبتكرة ؛ وهي ستحافظ دائما على اعيادها التي تحييها بالرقص والغناء الجوقي . وكان في سيكيوني وفي ايجينا اختصاصيون في صناعة البرونز ونقاشون مشهورون . اما كورنثوس ، وان كانت صبغتها اليونانية اقل صفاء بسبب الروابط التي شدتها الى الشرق ، ـ بعض السراري المقدسات تكرسن فيها لخدمة افروديت ـ فقد كانت لها صناعتها الخزفية ايضا . وليست هذه الاسماء سوى قليل من كثير غيرها : فلم يكن لليونان عاصمة ثقافية بعد .

مرد ذلك ان اثينا كانت حديثة العهد في هذا المضمار. فلم يدفعها الى الامام دفعا حاسما سوى الاستبداد الذي ساعدته في عمله هجرة الايونيين اليها في اعقاب استتباب الأمر للسيطرة الفارسية على آسيا الصغرى . فلبيسيستراتوس واولاده يعود توسيع معبد الـ « هيكاتومبيدون » القديم ، وتقدم صناعة الخزفيات التقني وانتشارها ، وتنظيم اعياد ديونيسوس، ومباريات المآسي التمثيلية، وتماثيل الفتيات العارية في قلعة اثينا، ووضع النص النهائي للملاحم الهوميروسية. وبعد ابعاد آخر بيسيستراتوس في السنة ٥١٠ ، لم تحدّ المدينة من وثبتها الى الامام بل وجهتها فقط في اتجاه اكثر استقلالاً عن الطريقة الايونية واقل انقياداً لها ، لاسيما على صعيد النقاشة حيث برزت مرة اخرى الخشونة الدورية . ولكن كل هذه الدلائل عديمة القيمة والاهمية لمن لا يقف عند التطور اللاحق . فلا مجال بعد ، في آخر العهد القديم ، للكلام عن سيادة اثينا الادبية .

فحتى تتركز الحضارة اليونانية نهائيا وتقف في وجه الحضارات الشرقية ، وحتى تغدو اثينا مركز هذه الحضارة دون منافس ، يجب ان تحدث ازمة الحروب الميدية.